

سلسلة أعلام الفكر العالمي

بيلزاك

تأليف فيليب برتو
ترجمة دونا مدثر الرافي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارنتون - ساقية الخنزير
ت : ٣١٢١٥٦ - بريقياً و موكيالياً ، بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ ، بيروت

بِلْزَاكْ

جميع الحقوق محفوظة
للمؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الأولى • ١٩٧٩

نبذة عن حياته

إرتبطت حياة بلزاك بنتاجه ، لذا يتوجب علينا خلال هذه الدراسة أن نظهر بعض الاحداث لنوضح أصل ومسيرة «الكوميديا الانسانية» .

تعدد هذه النبذة بعض الأحداث الواجب الاطلاع عليها لمعرفة طباع المؤلف ومتابعة حركة سير قدره .

ولد هونوري دو بلزاك (Honoré de Balzac) في مدينة تور (Tours) الفرنسية في ٢٠ أيار ١٧٩٩ وترعرع هو وأخته لور (Laure) لدى مربية في إحدى الضواحي في سان سير (Saint Cyr) . وقبل ان يبلغ الخامسة بدأ بارتياذ مدرسة لوجاي (Leguay) في تور . وفي الفترة الممتدة بين ٢٢ حزيران ١٨٠٧ ، ٢٥ نيسان ١٨١٣ تلقى علومه في ثانوية قاندوم الداخلية التي كان يديرها رجلا دين تدينا إثر وقوع الثورة . وخلال هذه السنوات الست لم يزر بلزاك المنزل العائلي ، كذلك لم ير والدته إلا مرة واحدة .

وقد عرف وتحسس الحماس الصوفي خلال تناوله القران العام
١٨١٤ انتقل أهله إلى باريس . حيث تابع هونوري دراسته أولاً في
مدرسة الملكي لوبيتر (Lepitre) ، ثم في معهد سانزيه
(Sanzer) وبوزولان (Beuzelin) .

في الفترة الممتدة بين ١٨١٦ ، ١٨١٩ درس القانون ثم تدرّب
لدى المحامي الاستاذ جيونييه دو مورفيل
(Guillonnet de Merville) . ثم انتقل للعمل لدى كاتب العدل
الاستاذ باسيه (Passez) ، وتابع في نفس الوقت دراسة الآداب في
السوربون .

العام ١٨١٩ اعتزل في سقيفة في شارع لوديفيا ،
(Les diguières) . وتدرج في الاعمال الادبية لكن دون تحقيق
أي نجاح .

العام ١٨٢٠ عاد إلى المنزل العائلي الذي انتقل إلى مدينة فيل
برسيس (ville-parisis) . وأقام فيه بصورة متقطعة لان عائلته
كانت قد اتخذت لها منزلاً مؤقتاً في باريس . العام ١٨٢٢ هام حياً
بالسيدة دو برني (De Berny) المولودة لوزير انطوانيت لورهينز
(Louise Antoinette Laure Hinner) ابنة احد عازفي القيثارة
لدى الملكة ماري انطوانيت (عرابتها) . فقد كانت عائلة دوبرني
تقضي فصل الصيف في فيل برسيس .

كانت السيدة دوبرني تكبر هونوري باثني وعشرين عاماً . ولكن
هذا لم يمنعها من أن تكون صديقة له لا مثل لها ، فكان لها تأثير

عميق على تكوينه الاخلاقي والادبي. كما برهنت له عن اخلاص كبير، وحب لا حدود له حتى وافتها المنية في ٢٧ تموز ١٨٣٦. لقد احاطت صديقتها بنحو كبير. ولولا نصائح هذه «الحبة» لاختلف نتاج بلزك العصي الطبع.

في الفترة الممتدة ما بين ١٨٢١، ١٨٢٤ ساهم مع مجموعة من رفاقه بكتابة روايات تحت اسماء مستعارة جمعت ونشرت باسم مؤلفات اوراس دوسان اولان الكاملية (Horrace de Saint Aulin).

العام ١٨١٩ يرتبط بصداقة نبيلة مع إحدى رفيقات اخته لور في المدرسة: زلما توريجان (Zulma Tourangin) المتروجة من أمر المدفعية كارو (Carraud). وقد كان لهذه السيدة العاقلة والفاضلة تأثير كبير على الكاتب الذي كان غالباً ما يحل ضيفاً على العائلة في مصنع بارود انجولام (Angoulême) ثم في فرايل (Frapesles) ثم قرب اسودان (Issoudun).

والفترة الممتدة ما بين ١٨٢٥-١٨٢٧ تمثل مرحلة الحصول على الثروة من خلال الاعمال: ناشر ثم طابع فؤوس مطبعة ولكنه لا يلبث ان يغرم بقضية قضائية تؤدي إلى افلاس عائلته وتترك آثارها عليه طوال حياته. ثم يعود إلى الادب. وفي هذه الفترة أقام علاقة بالدوقه داربانسس (D'Arbantès) وساهم في اعداد مذكراتها.

العام ١٨٢٩ توفي المنية والد بلزاك ... تحقق له قصة « الثوار
 الملكيون » التي ألفها في فوجير (Fougères) بعض الشهرة . خلاف
 مع لاتوش . نجاح صاحب لـ «فيزيولوجية الزواج» .
 العام ١٨٣٠ بدأ بلزاك بالكتابة في عدة صحف، وياشر بالظهور
 في عدة مجالس منها مجالس الأميرة باجراسيون (Bagration)
 والكونتيسة ميرلين (Merlin) والبارون جيرار (Gerard) وصوفي جي
 (Sophie Gay) وركاميه (Récamier) ولدى اولب بليسيه
 Olympe Pelissier وهي نصف سيدة مجتمتع . وواتته الشهرة مع
 مشاهدمن الحياة الخاصة . قضى مع « المحبة » الفترة الممتدة بين حزيران
 وايلول في غريناديير (Grenadière) وسان سير (Saint Cyr) قرب
 مدينة تور . واجتازا معاً نهر لوار في مركب بخاري وبلغا سانت
 نازير (Saint Nazaire) ليعودا إلى كروازيك (Croisic) .
 العام ١٨٣١ تلاقى «غشاء الكآبة» التي تظهر في شهر آب
 نجاحاً كبيراً . ولوج التائق الذي سيبلغ حده الأقصى عام ١٨٣٢ .
 جنون الترف ؛ زينة ومفروشات لتجديد منزل شارع كاسيني وتوسيعه .
 نفقات طائلة متنوعة ، حصانان ، تلبرية (مركبة خفيفة ذات عجلتين
 باسم صانعهما) ، خدم باللباس الخاص ، مقصورة في الاوبرا ، لباس
 انيق يعده الخياط المشهور بويسون (Buisson) الذي يَمَثَلُ في
 «الكوميديا الانسانية» . غالباً ما كان بلزاك يعمل خلال الليل ويكثر
 من شرب القهوة ، متدثراً بثوب راهب ذي برنس من الكشمير
 الأبيض : وقد بقي اميناً لهذه العادة .

العام ١٨٣٢ بدأت المطامح السياسية بالظهور... فشل في
خوض الانتخابات النيابية، كذلك لاقت مشاريع الزواج الخيبة.
الانضمام الرسمي إلى حزب الشرعية الحديد الذي يقوده كل من الدوق
فيتز جامس (Fitz James) ولورانتى (Laurentie)... وتظهر
«الامبراطورة الجميلة» في الجزء الأول من القصص المضحكة فتشير
انسراح البعض واستنكار البعض الاخر. وكان بلزك قد أخذ منذ
عدة اشهر بالمركيزة الجميلة دو كاستري (de Castries) ابنة اخ الدوق
فيتز جامس، ويلحق بها في آب إلى إيكس لي بين Aix les bains
ويراقها إلى جنيف، نهاية الحلم الجميل في بداية تشرين الأول.
وتكون «الدوقة دو لانجيه» (١٨٣٣ - ١٨٣٤) (La duchesse
de Langeais) انتقام العاشق الذي تجذبه فتاة مغناج،
و«طبيب الريف» (١٨٣٣) انبحث عن عزاء. في ٢٨ شباط تصل
الرسالة الأولى المجهولة التوقيع من الغريبة البولونية. الأميرة المجهولة.

العام ١٨٣٣ تستمر «الغريبة» في كتابة تصريحات الاعجاب
المرتعة ويرد عليها مطولاً متحمساً مندفعاً خلف هذا الحب الحديد
والجميل. يرتاد بلزك عدة مجالس ارستوقراطية. وتظهر «اجيني
غراندي» Eugénie Grandet مؤلف بلزك الكلاسيكي الأول. وفي
٢٥ أيلول يتم اللقاء الاول بين بلزك و «الغريبة» الكونتيسة ايثلين
هانسكا (Evelyne Hanska) في سويسرا في نيو شاتل. ويقضي
بلزك خمسة أيام بقربها مع زوجها. لقاء جديد بين العاشقين في
جنيف من عيد الميلاد ١٨٣٣ حتى ٨ شباط ١٨٣٤.

العام ١٨٣٤ ، عام من العمل «الحائق» ، «المفرط» دون
 التخلي عن الحياة الاجتماعية والترف. في ٢٣ آذار سمح لبلزك
 بتقديم احتراماته للكونتيسة أبونبي (Apponyi) زوجة سفير النمسا.
 في ٨ أيار شارك في حضور سهرة لدى السفارة التي قدمته بعد عدة
 أيام إلى الكونتيسة جيـــــودو بوني فيسكونتي
 (Guidoboni Visconti) المولودة سارة لوفيسل
 (Sarah Lovell) وهي متهنكة شقراء. وقد تبع هذا التعارف إقامة
 علاقة ... فشل «طيب الريف» بالفوز بجائزة مونثيون (Monthyon)
 التي فضلت الاكاديمية اعطاءها إلى السيدة مؤلفة «الاحدب
 الصغير» ، «عائلة القباقيبي» (صانع القباقيب) ،
 في آب ١٨٤٣ أوصي بلزك على العصا المشهورة
 ذات القبضة الذهبية المرصعة بالزمرد... تنظيم حفل عشاء ضخم
 على شرف اولب بليسيه (Olympe Pélissier) وعشيقها في ذلك
 الحين روسيني (Rossini) ونوديه (Nodier) وساندو
 (Sandeau). وقد آوى بلزك ساندو في منزله في شارع كاسيني
 بعد ان تخلت عنه جورج صاند (George Sand) واتخذ مساعداً له .
 كذلك اتخذ ادمون فيرده (Edmond Werdet) ناشراً له رغم اعتماده
 ستة آخرين. في نهاية أيلول وحتى منتصف تشرين الأول قضى فترة
 استجمام في ساشيه (Saché) لدى السيد مارغون (de Margonne)
 للانكباب على «ساروفيم الملاك الطاهر» (Seraphita) ، «الأب
 غوريو» (le père Goriot).

وفيا خص حياته الاجتماعية فهو يداوم على ارتياد الاوبرا .
ويظهر كتاب «البحث عن المطلق» وكتاب «الاب غوريو» . وتعتبر
هذه الرواية قمة عطاء العبقرية حيث تطبق لأول مرة عودة الاشخاص
المنهجية .

في ربيع عام ١٨٣٥ أقام بلزاك في شارع باتاي (Batailles)
في شايبو (Chaillot) في منزل سري استأجره تحت اسم الارملة
دوران (la veuve Durand) لانه يريد التهرب من الدائنين
وتجنب السجن في أوتيل دي زار يكو (Hôtel des Haricots)
لامتناعه عن الالتحاق بالحرس الوطني ولرغبته أخيراً باستقبال
الكونتيسة جيدوبوني- فيسكونتي (Guidoboni Visconti) دون
رقيب . وبدأ بالعمل في منزله باطمئنان ودون خوف من المتطفلين .
وعني باعداد صالون صغير فخم وصفه في «الفتاة ذات العيون
الذهبية» وكانت النادرة من اصدقائه تستعمل كلمات سرية مثل «آن
موسم الخوخ» للوصول اليه . وكان يعمل ليل نهار وينكب على عمله
احياناً ست عشرة ساعة متواصلة . ثم لا يلبث ان يعلن عن رغبته في
تأجير منزله القائم في شارع كاسيني إلا انه يبقي فيه طاهيه وساندو .

في ٩ ايار يرحل بلزاك إلى فينا حيث التقى السيدة هانسكا
(Hanska) وزوجها . في ٢٠ ايار قابل مترنيخ . وعاد في بداية
حزيران إلى باريس . وقد أثار له أخوه هنرى بعد عودته من جزيرة
موريس المتاعب . قام برحلة إلى بولونياير (Bouleauinière) لزيارة

« المحبة » التي تعاني من انتفاخ في شرايين القلب . في شهري تشرين
وكانون ظهر كتاب زنبق في الوادي على حلقات في مجلة باريس
(Revue de Paris) . واقام بلزك حفل غداء على شرف
سكرتيره دوبلوا ، غرامون ونيان .

العام ١٨٣٦ اشترى بلزك مجلة « وقائع باريس » لتثير له الكثير
من المتاعب الفكرية والمشاكل المالية . في شهر تموز تبادل بلزك
الرسائل مع سيدة مجهولة وهي لوز التي لا يتمكن من لقائها أبداً . قام
برحلته القلقة الأولى إلى ايطاليا للدفاع عن حقوق جيدوبوني فيسكونتي
في الحصول على تركة . يرافق بلزك في رحلته غلام صغير يدعى
« مارسيل » وهو في الحقيقة امرأة شابة متنكرة بزى فارس وهي
(السيدة كارولين ماربوتي) Caroline Marbouty . واقام الصديقان
في تورين (Turin) حيث تحتفي به الطبقة المخملية . يعلم بلزك عند
عودته من رحلته بوفاة السيدة دوبرني « المحبة » . قام الرسام لويس
بولونجيه Louis Boulanger برسم بلزك بثوبه الأبيض . فيقوم هذا
الاخير بارسالها عام ١٨٣٧ إلى عائلة هانسكي في قصر وريز شونيسا
(Wierzchownia) . في نهاية شهر تشرين الثاني قام برحلة لمدة
عشرة أيام الى ساشيه لزيارة السيد دو مارغون (de Margonne) .
ثم زار الدوقية دو دينو (de Dino) في تاليريون
(Talleyrand) ، في قصر روشكوت (Rochecotte) .

العام ١٨٣٧ زار بلزك ميلانو (Milan) للملاحقة مصالحي آل
فيسكونتي . ووصل اليها في ١٣ شباط ففتحني به الارستوقراطية الميلانية

طوال فترة إقامته . زار مانتزوني (Manzoni) ثم سافر إلى البندقية
وابحر من جنوى في ٨ نيسان ثم انتقل من ليفورن (Livourne) إلى
فلورانس (Florence) ، وعاد إلى باريس في ٣ ايار . لجأ إلى آل
فيسكونتي واختبأ في قصرهم في الشاتلزيه ليعمل بهدوء بعيداً عن
ملاحقة كاتب المحكمة . ولم ينقله من المحاكمة إلا قرض قدمته له
السيدة فيسكونتي . رحلة إلى ساشيه في شهر آب . استملاك كوخ
وارض «الجاردي» (Les Jardies) الواقعة بين سافر (Sèvres)
وقيلدا قرية (ville d'Avray) . عمل بلزك على توبيخ ملكيته شيئاً
فشيئاً وانشاء فيلا سببت له خيبة كبيرة ، وخسارة مالية مجحفة .
صدور رواية «عظمة وانهيار قبصر بيردتو» .

العام ١٨٣٨ قام برحلة إلى فرايل (Frapesle) لزيارة عائلة
كارو وانتز المناسبة للقيام بزيارة جورج صاند في نوهان
(Nohant) حيث بقي من ٢٤ شباط إلى ٢ اذار . قام برحلة إلى
سردينيا من ٢٠ اذار إلى ٦ حزيران للاستطلاع عن وضع بعض
مناجم الفضة القديمة التي كان الرومان يستغلونها ، بعد ان اخبره عنها
بعض تجار جنوى في العام الماضي ، وكان بلزك يحلم بانشاء شركة
لاعادة الحيوية الى هذه المناجم بهدف الاتراء . زار مرسيليا وطولون
واجاكسيو ثم انتقل إلى الجيرو (Alghiero) . في سردينيا زار آثار
المناجم في ارجنتريا (Argenteria) ونورا (Nurra) . العودة إلى
باريس عبر ميلانو (لم يكن هذا المشروع خيالياً فقد اثرت هذه
المناجم مالكيها بعد ان استغلوها بشكل تقني وفي) . وصول الرسالة

الأولى من ايلان دو فاليت Héléne de Valette المقيمة قرب جيراند (Guirande). لم يتوفر الدليل على ان بلزك قد قام عام ١٨٣٨ بزيارة جيراند والكروازيك (Croisic) وباتر (Batz) برفقة هذه السيدة بعد ان كان قد تجول فيها برفقة السيدة دو برني . حدد في هذه المنطقة « عقدة بياتركس » (١٨٣٩) . نحلى عن منزله الواقعين في شارع كاسيني وشارع باتاي ليقم في جاردي بصورة نهائية مع عائلة جيدوبوني فيسكونتي .

العام ١٨٣٩ قضية بايتل (Peytel) . يتهم كاتب العدل بايتل بقتل زوجته وخادمه مع سابق تصور وتصميم . يحاكم في بور (Bourg) ويحكم عليه بالموت . كان بلزك قد عرف بايتل عام ١٨٣١ وتعاون معه في جريدته السارق . ولما احيلت القضية أمام محكمة الاستئناف حضر بلزك إلى بور مع جافرني وتشاور مع المحكوم عليه بالاعدام . ورغبة منه في اقامة الدليل على براءة كاتب العدل نشر مذكرة عن قضية بايتل الا ان جهوده ذهبت هدراً وتم اعدام بايتل في ٢٨ تشرين الأول ١٨٣٩ . في تموز قام فيكتور هيجو بتناول طعام الغداء في جاردي (فيلا بلزك) برفقة غوزلون (Gozlon) ، فقد كان بلزك يود التقدم إلى الاكاديمية الفرنسية .

العام ١٨٤٠ جرى عرض « قوتران » (Vautrin) مأساة بلزك في مسرح بورت سان مارتين (Porte Saint Martin) في ١٤ آذار فخلق الفشل التام . في ١٦ آذار منع وزير الداخلية عرض للمسرحية بحجة ان الممثل

فرديك لوماتر (Frédérick le Maitre) ، قد تصنع وترين فبدا عند وضعه الشعر المستعار شيها بالملك لويس فيليب (Louis Philippe) . أصدر بلزك «المجلة الباريسية» متحملاً مسؤوليات تحريرها بكاملها فظهر منها ثلاث نسخ في ٢٥ تموز، ٢٥ آب و ٢٥ أيلول ١٨٤٠ . ورد في هذه المجلة مقالان مازالا يثيران الاهتمام حتى اليوم. الأول حول تاريخ بورت رويال (Port Royal) لسانت بوف (Sainte Beuve) ، والثاني عبارة عن مدح حماسي لقصة ستاندال (Stendhal) راهبة بارم (la chartreuse de Parme) . غادر بلزك فيلته لوجاردي في الخريف واتخذ له مسكنا في شارع باس (Basse) في باسي (Passy) . أقامت والدته لعوزها معه لكنها لا يلبثا ان يفترقا وقد ضاق احدهما بالآخر. باع جاردي بخسارة كبيرة فقد كلفته تسعين الف فرنك لم يسترد منها الا سبعة عشر الفاً وخمسمائة فرنك .

العام ١٨٤١ ، في نهاية شهر ايار تكون حالة بلزك الصحية قد ساءت فيعمل بصعوبة. في ٢ تشرين الأول عقد اتفاقية لنشر «الكوميديا الانسانية» مع تجمع مكبات فيرن (Furne) وشركاه دو بوشيه (Dubochet) وهترل (Hetzl) وبولان (Poulin) .

العام ١٨٤٢ علم في شهر كانون الثاني ب وفاة الكونت هانسكي التي كانت قد حدثت في ١٠ تشرين الثاني الفائت. في ١٩ اذار تلاقى مأساته «ثروات كينول» (Les ressources de Quinola) الفشل في الاوريون. في ١٦ نيسان أعلن بيان فرنسا للمؤلفات الحديثة

(ببليوغرافيا) عن وضع الدفعة الأولى من «الكوميديا الانسانية» قيد البيع. في تموز نشرت التوطئة في الدفعة الاخيرة من الجزء الأول. العام ١٨٤٣ قام برحلة الى سانت بترسبورغ (Saint Petersburg) في الفترة الممتدة بين ٢٨ تموز الى ٣ تشرين الثاني حيث التقى بالسيدة هانسكا. في طريق العودة قام بزيارة برلين ، بوتسدام ، بيزيك ، دراست ، لياج وبروكسيل وزار فيها المدن والمتاحف. أصيب بالتهاب احدى الاغشية الثلاثة التي تشكل أم الدماغ. وقام الطبيب ناكار (Nacquart) برعايته. في ٣ كانون الأول أنهى النحات دافيد دانجيه (David D'Angers) نصفية بلزك الذي ينقاد اكثر من أي وقت مضى لاهوائه .

العام ١٨٤٤ أجهد نفسه بالعمل رغم الظواهر المقلقة التي تدل على ارهاقه الكبير. إستضاف ليرت بوريل ، (Lirette Borel) السويسرية معلمة آنا (Anna) ابنة السيدة هانسكا في منزله في باسي قبل دخولها الى بيت المترهبات حيث تدلي بقسمها تحت اسم الأخت دومينيك (Soeur Dominique) وقد حضر بلزك احتفال النذر في ٢ كانون الأول ١٨٤٥ علماً أنه تفاوض مع الكاهن العام ورئيس الديراوجلية (Eglée) حول دخول ليرت وتبادل الرسائل الحارة مع «الغريبة» .

الفترة ما بين ١٨٤٥ ، ١٨٤٦ في أول أيار لحق بلزك السيدة هانسكا الى برست حيث تقيم فيها ابنتها آنا وخطيب هذه الكونت جورج ميتراك Georges Mniszech . ويتخذ الجميع اسماء مستعارة لهم

فيسمى بلزاق نفسه بيبلوقيه (Bibloquet) وتسمى ايفلين نفسها آتالا (Atala) وتسمى آنا نفسها زيفرين (Zéphrine) ويسمى جورج نفسه جرانجاليه (Gringalet) . ويتلقبون باسم فرقة المشعبدين المرحلة . يرحل بلزاق مع السيدة هانسكا وابنتها آنا الى ايطاليا . وأقامت ايفلين وابنتها آنا في باريس بصورة سرية لمدة شهر . قام الثلاثي برحلة عبر فرنسا وهولندا وبلجيكا . غيرة السيدة برينيول (Brugnol) اسمها الحقيقي لويز برونيو (Breugnot) خادمة بلزاق وعشيقته التي كان يلقبها « بالانيقة » . اختلاس لويز رسائل السيدة هانسكا من بلزاق . في ٢٨ أيلول ١٨٤٦ اشترى بلزاق منزلاً يقع في شارع فورتينه (Fortunée) لاشاتريز بوجون (La chartreuse Beaujon) . في ١٣ تشرين الأول حضر بلزاق حفل زواج جورج منيسك وآنا هانسكا . ولادة ايفلين هانسكا لطفلة ميتة بدلاً من الصبي المنتظر والذي أطلق عليه اسم فيكتور هونوري (Victor Honoré) .

العام ١٨٤٧ شباط ، نيسان أقامت السيدة هانسكا في باريس في منزل مؤسس يقع في شارع ناف دوبرني (Neuve de Berry) . مشاغل صحية ومالية . اتفاق بلزاق المال دون حساب لتأسيس منزله الواقع في شارع فورتونه حيث يود الإقامة بعد زواجه من ايفلين . ابتزاز « الانيقة » لا برونيول التي تهدد بنشر رسائل السيدة هانسكا إلى بلزاق . شعور بلزاق بالارهاق الجسدي والمعنوي . تدوين وصيته في ليل ٢٨ حزيران واختلافه مع اميل دوجيراردان

(Emile de Girardin) . في ايلول ١٨٤٧ قام بالرحلة الأولى إلى فير سشونيا (Wierchowonia) لزيارة الكونتيسة هانسكا . رحل في ٢٥ ايلول ١٨٤٧ ويصل مرهقاً إلى ابعده الحدود بعد تسعة أيام من السفر . في تشرين الثاني قام برحلة إلى كياف ليعود إلى باريس في ١٦ شباط ١٨٤٨ .

العام ١٨٤٨ شهد باشمزاز تحرر ٢١ ، ٢٢ شباط ونهب المنازل الملكية في اللوفر . في ٢٩ نيسان فشل بالفوز بمقعد في الجمعية التأسيسية . في ٢٥ أيار تعرض مأساته «زوجة الاب» في المسرح التاريخي فتلقى نجاحاً كبيراً . في الفترة الممتدة بين ٢٨ أيار، ٧ تموز يقوم بلزك برحلته الاخيرة إلى ساشيه لزيارة السيدة دومارغون . في ٨ تموز حضر جنازة شاتوبريان وبدأ يفكر بالسعي للحصول على كرسيه في الاكاديمية الفرنسية ، الا ان دونواي (de Noailles) يتخبط باغلبية ٢١ صوت ولا يحصل بلزك الا على صوتين الاول لـ فيكتور هيجو والثاني لـ لامارتين . في ٢٨ كانون الثاني فشل بلزك من جديد في الحصول على مقعد فاتو (Vatout) حيث يفضل عليه سانت برياست (Saint Priest) . وفي المحاولة الثالثة لا ينال بلزك أي صوت .

العام ١٨٥٠ . في كانون الثاني ازداد وضع بلزك الصحي سوءاً ، ورغم ذلك بذل مجهوداً كبيراً ورافق السيدة هانسكا والزوجان نيزاك إلى كياف . خلال وجود بلزك في اوكرانيا أقامت والدته في المنزل الواقع في شارع فورتينه في باريس واعتنت باضفاء

اللمسات الاخيرة عليه . في ١٤ آذار اقترن بلزك بالسيدة ايغلين
 هانسكا في كنيسة سانت بـارب دو برديتشاف
 (Sainte Barbe de Berditehev) وبارك العقد الكاهن فيكتور
 اوزاروسكي (Victor Ozarowski) صديق العائلة نيابة عن
 المطران جيتومير . وقد اعترف الزوجان أمام اوزاروسكي المرشد والقس
 الديني وتناولوا قربانها . لا يزال بلزك يعاني من المرض . في شهر أيار
 اتجه الزوجان إلى باريس ، وكانت الرحلة متعبة بسبب وضع الطرق
 وحالات الاحتناق التي تصيب بلزك . وصلا في ٢١ أيار إلى المنزل
 الواقع في شارع فورتينه ، إلا انها لم يجدا أي مجيب رغم الضوء
 المشتعل . فكان لا بد من اللجوء إلى حداد لولوج المنزل الذي اعده
 بلزك بحب وعناية له «جنية الشمال» . اضطر بلزك إلى التزام السرير
 بعد وصوله مضى خائر القوى . في ٣١ أيار استشارة عدة اطباء . ١١
 تموز ظهور عوارض التهاب الصفاق وبدء معاناة المريض من الألم
 الرهيب . في ١٢ آب بدأ جسد بلزك بالانتفاخ وأصيب بنوبات
 احتناق وعانى من العطش . في ١٨ آب بدأ بلزك بالمنازعة
 والاحتضار وحصل على مسحة المرض . في الساعة التاسعة مساء عاده
 فيكتور هيجو الذي يحكي في «الاشياء المرئية» (Les choses vues)
 لقاءه مع المحتضر . لفظ بلزك انفاسه الاخيرة في الساعة الحادية عشرة
 والنصف . في ٢١ آب جنازة بلزك في كنيسة سانت فيليب دورول
 (Saint-Philippe du Roule) وأبنته فيكتور هيجو بصوره
 في مقبرة بار لاشاز (Père La chaise) .

الجزء الأول

الاستعدادات

- ١ -
الأصول والتأسيية

تقصي آثار التأسلية

تقصي آثار التأسلية مرغوب فيه ، لاننا نأمل دائماً ورغم ضعف قوانينها ان نستشف من خلالها السطوة السرية التي تحدد القدر بكامله . كون المرء الوحيد الذي توصل الى تعلم القراءة والكتابة من بين احد عشر أخ واخت ، وباشر العمل ككاتب لدى كاتب عدل في البلدة المجاورة بعد ان قام بحراسة نعاج أهله ، ثم غادر عائلته ليلبي نداء طموحه . هذا الطموح الملتهب كشمس بلاده ، ورحل في السادسة عشرة من العمر سيراً على قدميه سالكاً الطريق الملكية التي تؤدي الى باريس وهو لا يملك من متاع الدنيا إلا هراوة في يده وحذاءً محددًا في قدميه وصرة فوق ظهره . ليصبح فيما كاتباً لدى الوكيل ويتولى فيما بعد منصب امين سر مجلس الملك ...

هذه هي ملحمة وأوذيسة برنار فرانسوا بلزاك (Bernard Francois Balzac) والد هونوري دو بلزاك ، هذا الأب الذي ولد عام ١٧٤٦ في قرية لانوجيريه (La Nougayrié) في خورينة كانزاك Canezac في بلدة مونتيرا (Montirat) في التارن (Tarn). (توفي في باريس عام ١٨٢٩ في الثانية والثمانين من عمره).

ألا يوجد في قصة نجاح هذا الأب دافعاً لتشجيع الطموح الذي كان يلتهب في دماء ابنه ؟ بلا شك سيتفجر هذا الطموح لدى الابن على شكل مشاريع ترمي الى الحصول على الاجحاد والغنى . وسيظهر في طلاقة لسانه وخصوصاً في «التعبير الرائع عن هذه المغالاة الروحية وهذا الشعر الفاسكوني العاطفي».

هذه النشوة في الأقوال ، وهذا الغش بالتلاعب بالنفس ، وهذا الجيشان من الآمال المدهشة ، وهذه القرينة الخيالية التي تجمل المستقبل وتلونه بألوان ذهبية رغم كل الفشل . هذه كلها تتأتى من الآباء ففي مثل هذا الوسط يتفاخر الآباء والابناء في البحث عن الاضواء ويشغفون بالحديث والمناقشة . «لقد كانوا يعيشون في ترف من الافكار التي لا يمكن ان تتصور أطف منها . فتمتد السهرات التي كان هونوري يقرأ فيها وينشد كبار المؤلفين من معاصرين وقدامى حتى منتصف الليل . وقد كتب الجميع آلام السيدة بلزك ، الاخت لور وهونوري نفسه عن هذا الامر واكادوه في مراسلاتهم مع الآخرين . ويؤثر الأب اكثر ما يؤثر على «أدب» ابنه في الفترة الممتدة بين السادسة عشرة والثامنة والعشرين من عمره لمحاوارة معه حول علم الاجتماع والسياسة والتاريخ والعرقية والقانون والدين والفيزيولوجيا حيث كان كل واحد منها يدافع عن وجهة نظره بجرارة وثابة .

لاحظ بلزك في سن مبكرة اصالة والده وابتكاره فسجل البحوث التي كان يستتجها من خبراته وقراءته . ونجد في روايات

الشباب الأولى «ارغو القرصان» (Argow la Pirate). وفي تيار الكوميديا الانسانية خيال الرجل العجوز ونظرياته وعاداته وأفكاره الراسخة. فشخصية الاب توضح شخصية الابن وتفسر عدداً من اتجاهاتها الفلسفية. فقد أخذ الابن عن ابيه «الدين» الذي جاهر به خلال مرحلة شبابه لرابليه (Rabelais) وسترن (Sterne) وروسو (Rousseau) وفولتير (Voltaire)، وفلاسفة القرن الثامن عشر. كذلك اكتسب منه حبه للبحث عن التأثيرات الفيزيولوجية والنسالة (علم تحسين النسل) والوراثة والنشوء والتربية والحياة الطويلة، وأخذ عنه بالإضافة الى هذا كله هذه القوى الجسدية - القوة الطبيعية - التي كانت تتحدى كل التعب والارهاق المتراكمين، وهذه القوى المعنوية التي كانت تغلب على كافة العقبات. فهو لم يكن يخطط لهذه المشاريع الكبيرة «لولم يكن يملك ثقة كبيرة بنفسه» كوالده.

يتوفر عدد من هذه الصفات المشتركة بدرجات متفاوتة لدى الاشخاص المتحدرين من اصل جنوبي، هؤلاء الاشخاص الذين تميز جراتهم ونجاحهم المثير وحظهم الصاحب و«حيويتهم التي توجه المرء مباشرة نحو الصعوبة لايجاد حلول لها». صفحات متعددة من «الكوميديا الانسانية» رستياك (Rastignac) نبيل روفاك (Ruffec) الشاب (الاب جوريو) (le Père Goriot) بيناسيس (Bénassis) ابن البورجوازية (طبيب الريف) (Le médecin de Campagne) الجندي الريفي (شغف في الصحراء) (une passion dans le désert) تيودور دو لايبسارات

(Théodore de la Peyrade) (البورجوازيون الصغار)
(Les petits Bourgeois) بول دو مـانرفيـل
(Paul de Mannerville) (عقد الزواج) جازونال (Gazonal)
(ممثلون دون علم منهم) (Les Comédiens sans le savoir)
ليليستراد (Les Lestrades) ، ليموكومب (Les Maucombes)
(مذكرات عروسين شابتين)

(Mémoires de deux jeunes Mariées).

اعتبر بلزاك ان «وجود هذا العنصر يستحق دراسة دقيقة من العلم الطبي والفيزيولوجيا الفلسفية» وقد أسخت قصة عمه لويس بلسا (Louis Balssa) الذي اعدم بالمقصلة عام ١٨١٩ في ألي (Albi) لارتكابه جريمة عاطفية - كان هونوري في العشرين من عمره - فرحة تبادل الآراء بين أفراد العائلة. وقد رأى هونوري ان الفيزيولوجيا هي أفضل مفسرة للواقع وقد كان والده هو أول من علمه هذا المبدأ وبينه له. ولا شك ان بلزاك قد دون عدّة ملاحظات وافكار ردّدها له والده في الطبعة الأصلية من فيزيولوجية الزواج (la Physiologie du mariage) عام ١٨٢٦.

ورأى بلزاك ان معجزات الصدفة التي ندين لها بأعظم الرجال هي «سر الحياة» الذي يصعب على تحليلنا الحديث كشفه». على كل حال برنار فرانسوا بلزاك هو الذي مزق الغشاء الشعبي حيث كانت تغفو العبقرية. وذكّرنا هذا برينان (Renan)، ثومبو

(Veillot)، يعني (Péguy) الذين تحمّسوا بانفعال عن اجدادهم الجهوليين. لكننا لا نجد صدى مماثلاً لدى بلزاك. فهو يعمل على نحو لقب البيجوا (Albigeois) الذي منحه اياه أهله. ولم يشعر قط بالحاجة الى استنشاق رائحة هذا الحقل الذي ففي فيه اجداده يمنحهم لمجازه الكبير. لقد اختار كبار هذا العالم وجهد للنفاد الى دائرتهم. وقبل بغيرتهم واغتصب شعار بلزاك دونتراج (Balzac d'Entragues) دون ان يرف له جفن، وجعل من نفسه رسام الارستوقراطية التي اخذ منها غالبية شخصياته ونماذجه وقيم الفلاحين بالنسبة الى سيد القصر والاقطاعي البكر.

لقد زيف التطرف الرومانسي رواه، فقد بدا له الفلاحون والفلاحات أشبه بمخلوقات بدائية بقيت غرائزها المشدودة الى الارض في طور التوحش والبهائم مع بعض الاستثناءات البسيطة. ووسمت هذه الواقعية الفظة القاسية المتحيزة والظالمة بالغم والحزن بعض صفحات «طبيب الريف»، «كاهن القرية»، و«الفلاحون». وتذكر أمام بعض عيون القراء ظلال مخفية في آفاق اخرى بعيدة. وتذكر المارشال مونكورنييه (Moncornet) في رواية «الفلاحون» الذي «ينسى ارادياً» انه ابن عامل في ضاحية سانت انطوان (Sainte Antoine). لقد عرف بلزاك بدوره ردة الفعل هذه من الزهو المترفع المزدرى لاجداده واعمامه وابناء عمه في قرية نوجيريه.

كانت والدة بلزاك واسمها آن شارلوت لور سالانييه

(Anne Charlotte Laure Sallambier) تتسمي الى البورجوازية الباريسية وكان والده موظفاً كبيراً في المون وابن عمه مطرّز فساطين وأجواخ استقر في المارية (Marais) واتخذ له اسماً «البزة الذهبية» (La toison d'or).

كانت الام في الثانية عشرة من عمرها عندما تزوجها برنار فرانسوا بلزك الخمسيني والمغمر بعلم النسالة. كانت جميلة وأنيقة وغنية. إلا ان المتزل الذي ولد وترعرع فيه اربعة أولاد هونوري البكر، هانري (Henri) وابنتان لور (Laure) ولورانس (Laurence) لم يكن نموذجاً للفضيلة العائلية كما يتوقع من اتحاد غير متكافئ كهذا. وكانت عبارة الام المفضلة «الثروة، الثروة الكبرى هي كل شيء اليوم» فكان ان تسلطت تصورات المستقبل الذهبي وجشع المال وحب التزوات المترفة على احلام هونوري في سن مبكرة. وإذا اخذنا باعترافاته وكذلك بأقوال فيسار (Fessart) احد اصدقاء العائلة فاننا نجد ان السيدة بلزك لم تكن تحنو على ابنها البكر وتعتبره «ابن الواجب والصدقة» وتغمر «بمداعباتها المحنونة» ابنها الثاني «ابن الحب»، «ابن الزنى» وتفضله. اصطدم هونوري «ببرودة الامومة» وعرف في سن مبكرة سرها، فحاكم والدته بقسوة في اعترافاته الخاصة التي أدلى بها الى صديقاته الحميمات الثلاث زلي كارو ودوبرني وهانسكا.

غالباً ما كان هذا الألم السري يستيقظ بشدة كجرح قديم ونستشف مرارته بوضوح من خلال اشارات بارزة في الاحتفال المنوي

(le Centenaire) وجان الشاحبة (Jane la Pâle) وجعبة القنابل (La Grenadière) وامرأة الثلاثين والزنبق في الوادي. ويصاب القارئ بصدمة عندما يجيد قراءة هذه الاشارات للمحات فيصبح السرد الخيالي أبلغ أثراً.

قام سوء تفاهم عميق بين السيدة بلزاك وابنها وقد ساهمت امور عديدة بتخريب علاقاتها ، فن جهة كان هناك عصبية الام وسرعة تأثرها واصالة وجدة لم يكن الابن خالياً منها . وقد كتب يقول «نحن طريفون في العائلة» . ثم جاءت قضية المال لتربط احدهما بالآخر فقد كان بلزاك دائماً لوالدته وقد افقرها بعد افلاس مطبعته ، وكانت هذه الديون تدفعها الى تبادل اتهامات لا تنتهي : هي بهدف الحصول على «قطعة خبز» وهو ليجدد لها وعوده بالايفاء ، هذه الوعود التي بقيت كلامية ولم تنفذ ، وتقديم حججه التسويقية للتهرب من الدفع .

ويقال ان هذا البؤس قد ترك أثره في وجوه امومية كثيرة في «الكوميديا الانسانية» . هناك وجوه رائعة كالسيدة بيروتو (Birotteau) وليدي براندون (Lady Brandon) ، والسيدة هوشون (Hochon) والسيدة صوفيا (Sauviat) وبعضها كريبه جداً كماركيزة ايجلومون . أفليس التنوع اثراً سعيداً للغنى والحياة .

نلاحظ في وصف بلزاك للام ورود لمسات مشوهة وخاطئة : جي دوماتر وفيكتور هيجو ولمارتين لم يرتكبوا مثل هذه الاخطاء . تقدم مذكرات العروسين الشاباتين « ١٨٤٦ »

(Mémoires de deux jeunes mariées) للجمهور نوعاً من الشعر الغنائي الذي يرفع الى السماء « فن الامومة العظيمة ». تفتح السعادة فيه مرصعة وفق العقيدة التقليدية. انها ثمرة التفكير الفلسفي الذي لم يسبقه تفتح القلب. كتبت هذه الرواية برودة فعل داخلية : لقد تحرر فيها الكاتب من الذكريات الثقيلة التي ضاق بها بوجود الام. إلا ان الشائبة تستمر: حذر الانانية البرجوازية الدقيق الذي تنادي به العروس الشابة على حساب الشرف الزوجي والمسيحي. وأخيراً أقرأوا كتعليق رسائل الى الغريبة في نفس التاريخ وستقتنمون.

اجواء المتزل كانت معادية للمسيحية بوضوح وان تكلموا فيه كثيراً عن الدين بوجهات نظر جذرية فالسيدة بلزاك الفضولية تحب الاطلاع على الافكار؛ ومراسلاتها خير دليل على ذلك. وتشبع معتقداتها بالتعليم السري للملل التي كانت منتشرة آنذاك: السويدن برجييه، المارتينية والمسميرية. وكانت تعاطى علم الخصائص المغناطيسية وتمارس التنجيم. وكانت مكتبها غنية بمؤلفات الكتاب اصحاب الرؤى في الدين والفلسفة. ففي الزاوية القريبة يقبع سويدن بوج، سان مارتان، الفيلسوف المجهول. وقد وضعت هذه الكتب بين ايدي أونوري الذي كان فضوله يفتح في سن مبكرة. فاهتر خياله، وتلذذ المراهق بالصور الفردوسية: روعة ولذة. وتظهر ردود فعل هذا التعليم في كافة مؤلفاته. وقد ألف في السابعة عشرة من العمر قصيدة من النثر الموزون ليستجيب لدعوة صوفية: فالتبورن (Faithurne) التي وصفها فيما بعد للسيدة هانسكا بانها

«تمتات»، «مخطوطة طفل»، «مخطط اجالي» للوحة الكبرى سيرافيتا (Seraphita). وتدل كلها محاولة جديدة فالتبورن الثانية، العيد المثوي (١٨٢٨)، معاهدة الصلاة (١٨٢٤) على نشاط مئابر لاقامة نموذج ديني على اساس علم الخفايا المارتيني. وتلقي شخصية السيدة بلزك الاضواء على سير عدة صفات وأوضاع في الكوميديا الانسانية. ومن المفيد معرفتها بصورة حسنة. لقد تعذبت برؤية موت ابنها وتوفيت في اندليس (Andelys) في أول نيسان ١٨٥٤ بعد ان بلغت الخامسة والستين من العمر.

يظهر تمجاذب غريب بين باريس وبلزك. هل يجب ان نخضع هنا لنفوذ التأسلية الامومية؟ في الفترة الممتدة بين ١٨١٤-١٨٥٠ لم يغادر المؤلف مديته إلا للقيام برحلات عابرة. لنشر بشكل مختصر الى الدور الكبير الذي كانت تلعبه باريس في الكوميديا الانسانية، باريس التي كان يراقبها في ادق تفاصيلها، يراقب منازلها ومبانيها «بانتباه العارف المحلل»، باريس التي كان يتأملها كالكائن الحي، «مخلوق» كان يخضع «انسجته وخلاياه» لفحوص فيزيولوجية. كان من هؤلاء «الذين يتذوقون باريس ويعرفون وجهها جيداً فيلاحظون كل تولول، كل حبة، كل احمرار». سيكرسها ملكة وسيدة في مؤلفه الضخم فتشكل قلبه المخيف. فقد عرفته المدينة الاسطورية ذات السماوات الخرافية، «صاحبة المئة ألف رواية»، عرفته تلميذاً وجامعياً، كاتباً لدى محام، كاتباً مبتدئاً، بوهيمياً، عاشقاً، مغروراً وكاتباً شهيراً. عرفته، أثارته وتوجت كل حماسه. لا بد من قراءة

اجزاء من الحياة الباريسية وخصوصاً وصف باريس في فيراجيس ، الفتاة ذات العيون الذهبية (Ferragus la fille aux yeux d'or) والاب غوريو للاعجاب بروبقها . لقد عرف بلزك كيف يضح كل العصارة والماهية والتناقضات في هذه المواطن المناسبة لعبقريته الخلافة . وتذكر رواياته غشاء الكآبة ، زاد ماركاس (Z. Marcas) الشهداء المجهولون (les Martyrs ignorés) اعتراف طبيب الريف ولوجيات مؤلفات متنوعة (œuvres diverses) تذكر بشبابه المشتعل الطموح .

* * *

أخيراً ولد بلزك في مدينة تور في ٢٠ ايار ١٧٩٩ . وغادرها عام ١٨٠٧ بعد أن بلغ الثامنة من العمر حاملاً معه الى مدرسة فاندموم ، «الذكريات الأولى في حياتي» كما يقول في زنبق الوادي-الشعور بالجمال الذي يتنفس في ربوع تور والذي تأقلمت معه . وتميز هذه البصمة بصورة واضحة مؤلفات المستقبل . لقد نشأ حتى الرابعة من عمره ، كأخته لور ، لدى مربية تقيم في سان سير وهي احدي ضواحي تور واحدى اجمل مواقع منطقة تورين . وكانت منازل القرية البيضاء تمتد على طول التلة ، «تحيط بها اشجار الحور الجميلة التي كنا نسمع حفيفها» . وتحاذي التلة نهر لوار الذي تمضي مياهه للمتوجة ببطء بين الضفة الرملية النحاسية وتدفق الساقية الشقراء ، والجزر المحضوضرة ووريقات الصفصاف . وكانت المراكب الشراعية البيضاء تمر جماعات وقد نفخها الريح فترسل الاصدااء

اصوات واغاني البحارة . وكان الطفل يفتح نظراته على الحياة في ظل هذه السماء الكبيرة الصدفية ويستحم في هذه الاجواء الهادئة الساحرة ، «حيث تسود طيبة الارض الصافية لا الجرأة ولا الفخامة» ، كما كان يقول في انطباعاته حينذاك . تتلاشى التلال المزروعة المخملية في البعيد وهي تبدو ملطخة بالبقع البيضاء التي تكونها القصور والبساتين الصغيرة التي تحيط بها رياض الازهار والعريش «في ظل سماءك الصافية شهدت نظراتي الأولى فرار الغيوم الاول» . وقد وسم هذا الذهول وهذه الدهشة انطلاقة حساسيته المبكرة «هذه النبتات الضائعة في ذاكرته» التي ادهشت كل أهله في طفولته كانت تشكل اللوحات التي تسعد حين تلميذ فاندوم .

هذه الاحاسيس الأولى ارتسمت بعمق في نفسه وستكشف عن حقيقتها وعنفها وسحرها في دراسة الروائي المبتدئ الأول ستيني (Stenie) ١٨١٩ فاحداثها تدور في تور وسان سير .

وتلعب هذه المناظر الطبيعية التي وصفها بدقة وحب دوراً اساسياً مرتبطاً بالاحداث من خلال المشاعر التي تثيرها في نفسي البطلين الرئيسيين جوب (Job) وستيني .

في نيسان ١٨١٣ يعود المراهق الى تور بعد أن امضى في مدرسته ست سنوات لم يغادرها خلالها اطلاقاً . ويتابع خلال عام ١٨١٣-١٨١٤ دروس الصف الثالث في الثانوية ويتجول كذلك في المدينة دون ان تتعب عيناه من تأمل مبانيها . ويتذوق روعة المنازل

العتيقة والاحياء التي تحافظ فيها الطرق الضيقة الملتوية على مسحة من القدم. ولا شك ان اجواءها ستوسم اكثر من قصة مضحكة... وتجذبه كاتدرائية سانت غاتيان (Saint Gatien) بظلالها، وغالباً ما كان يتسكع في «صحراء الحجارة» التي تحيط بغنائها عند تدفق الاحاسيس الدينية والرومانسية في طرقها الصامته حيث تصل خفيفة امواج شجية من الاغاني المقدسة وتوج الارغون الضخم. وينشر بلزك بعض الشيء عن غربان الزيج «التي يقلقها ارتجاج الاجراس»، وسيحي طيرانها قدرته على الوصف. وتقول اخته لور «ان اسم سانت جاتيان كان يوقظ في نفسه عالماً من الذكريات». ويردّد هو نفسه انه خضع لسحر عظمة الطقوس الدينية. وكم من روايات حفظت آثار هذه الانطباعات! ستيني، جان لابال (Jane la Pâle) المحرومة (l'excommunié) الاستاذ كورنيليوس (Maitre Cornélius) امرأة الثلاثين كاهن تور ورواية غير كاملة الكاهن الكاثوليكي (le Prêtre Catholique) .

كانت تجذبه عظمة النهر وتشده فيعود الى ارتياد ارضفته وضافه «حيث يبدو نهر لوار العريض وكأنه يسيل في قناة واسعة نحتها فنان». وكان يشعر بالفخر لولادته في احدى هذه الابنية العظيمة المنتصبة كلها على نفس المستوى الهندسي الذي جعل من الشارع الملكي - قبل ان تهدمه الحرب - درباً منتظماً متناسقاً كلاسيكياً». وقد اشاد به في «المناجاة» (L'apostrophe) احدى القصص المضحكة بنشيد بياني عنائي. ويمكننا أن نشير الى كثير من لمسات السحر التي

تركها التوراة على طباعه ونتاجه .

أمضت عائلة بلزك ستة عشر عاماً في تور قبل ان تغادرها نهائياً في أواخر سنة ١٨١٤ بعد ان اقامت علاقات وعقدت صداقات مع خيرة المجتمع . ولم تنقش اجواء تورن وتبدد بسهولة . فقد كانت الجلسات العائلية تحيي ذكرى الريف الجميل حيث غمر النجاح آل بلزك . ونجد ان العائلة قد حافظت على مصالحها في تلك المنطقة فأبقت على مزرعة تبلغ مساحتها ستة عشر هكتاراً في ضواحي تور ولم تتنازل عنها إلا بعد عام ١٨٣٠ . وقد تمسك هونوري طوال حياته ، حين كان يبني اراحة فكره المتعب أو يود البحث عن الوحدة أو يتوق الى الصمت المهيب لبذل الجهود الكبيرة ، بزيارة احد اصدقاء والدته الحميمين السيد دومارغون صاحب قصر ساشيه . وقد عاش في هذا المنزل اجمل أوقات حياته وأكثرها إنتاجاً وكتب فيه بعض أجمل روائعه «لويس لامبير» (Louis Lambert) «البحث عن المطلق» (La recherche de l'absolu) ، «الاهام الضائعة» (les illusions Perdues) «سرافيتا» ، الاب غوريو ، قيصر بيروتو» ، و«الزنبق في الوادي» . وهذه الاخيرة تدور احداثها في ساشيه .

وسط هذه الطبيعة التي كان المؤلف يحبي فيها الاطراف المحبوبة ، كانت حساسيته تلتقط وترجم كل رائحة من روائع وطنه الصغير : روائع الطبيعة وروائع الفن ، عذوبة مناخه المطلق ، شفافية ضوءه حيث تبرز حدود الاشياء بنتوء غريب الوضوح . بأي حماس شرع في

حب وهاد ولوار «والشار (Cher) والآندر (Indre) والسيسة (Cisse)،
ولدانة تموجاتها الساحرة: «لا تسألوني بعد اليوم لم أحب التوران،
فأنا أحبها لا كما يفرمون بالمهد ولا كما يهيمنون بالواحة في الصحراء،
انا أحبها كما يهوى الفنان الفن! لعلي لما كنت أحيأ اليوم
لولا التوران!».!

* * *

هل تسكمت في نواحي ساشيه وفوفريه (Vouvray) المشهورة
اليوم وانت تتصفح الروايات التي حققت شهرة بلزاك؟ هل نقلت
عينك بين المنظر الطبيعي وتصويره الفني؟ اذا قت بذلك فانت لست
من هؤلاء الذين يأخذون على بلزاك ضعف موهبته البصرية. على
العكس من ذلك تماماً أنت تلاحظ في رسومه صلابة خطوطه
ولا ادري أي ارتجاف في الوانه! فهو دقيق، يحدد في الرأي بعض
نقاط الاستدلال التي تشكل بالنسبة اليه بعض اشارات الصحة
والاستطلاع، كما هي الحال بالنسبة لقرائه اليوم لان سياء الفتنة
ما زالت تتمتع بنعمتها الخالدة ولم يصبها العجز. ووصفه «حقيقي،
صادق بصدق حميم وعميق وهو يكشف سحر الخطوط والاضواء
الاكثر سرية، كما قال القاضي اندريه هالي (André Hallay).
تكشف غنائية الشاعر عن رقة في الكلمات وتوقد في الاحاسيس
تنبعث مرتعشة عندما يستجلبها ويبحث في اعماقه عن الصور الرومنسية.
وكان يجب ان يكرر القول بان روحه قد سجلتها الى الابد. لقد
قامت قرابة وثيقة بينها وبين حياته العاطفية. وكان يسلمنا اسرار فؤاده

وافتاحه حين يقرب ابطاله من السكون المتناسق الذي يمنحه سحر الطبيعة اللذيذة الضبابي الدقيق الى الاحساس كما في «جعبة القنابل». ألم يضم هذا المنزل في أحضانه عام ١٨٣٠ الكاتب التمل بمجده المستجد و«الحبة» التي كانت تحول فخرها وعزتها الى حنو متجدد؟ ألم يضم هذا المنزل وهو يعيد بناء هذه العلاقة بين ابطاله ويقودهم الى هذه الاماكن نفسها مما يجعل وصفه لطبيعة توران غير قابل للنقد الذي يوجه للبعض حول عدم وجود صلة نفسية بين الوصف والعقدة. وتعطي رواية الزنبق في الوادي خير دليل على ذلك.

فهذه الرواية تنتمي الى مجموعة الروائع الملقبة بمرحلة التوران. وبالإضافة الى اللائحة المذكورة سابقاً نعدد «جعبة القنابل»، «السيدة فيرمياني» (Firmiani)، أوجسني جراندي، «جوديسار الشهير» (l'illustre Gaudissart) و«الصديقــــان» (Les deux amis) (لم تكتمل)، دون الكلام عن عدة قصص مضحكة والمقالات والرسائل. وتعتبر رواية «زنبق الوادي» في آن واحد مجموعة اناشيد وكتاب مذكرات فكم ورد فيها من الصفحات البيانية، العابقة بالعطر، الهادرة الملونة بالتماس مع هذه الطبيعة الضاحكة، هذه الارض المؤثرة، هذه المواقع المتقلبة دوماً في تيهها المتألق! من استطاع ان يعطي صورة أفضل من بلزك من بين رسامي التوران الحديثين والمعاصرين، موريس بودال (Maurice Bedel)، هنري جارلين (Henri Guerin) اندريه هاليسه

(André Hallays) ، جاك ماري روجيه
 (Jacques Marie Rougé) أندريه توريه (André Theuriot)
 عن حسن « واديه الغالي » المحتبك الذي كان يقول فيه انه يسكن
 الألام ويوقظ الاهواء ؟ وفيض « وادي الحب » بالشعر الغامض الذي
 يغدق في قلب حاج ساشيه لسمعته صوتاً ملهماً ويغذي رغباته الاكثر
 خصوصية ويتعهد احلامه الشهوانية ويشفي اهواءه الميؤوس منها يحتفظ
 الاندر (Indre) مع بلزك بمظهر حورية الماء القديمة الهاربة وسط
 الحقول والمتدرجة كالثعابين بين خطوط القصب والصفصاف الملتوية
 والنارية من العيون العابرة أو اللامكتثة وهذا وفق الساعة أو الفصل ،
 والمنبتقة من قلب الدوامة حين يصفع دولاب الطاحون الجداول ،
 لتعود الى الظهور خلف باقة من الاسل متوجة بالفيونقروزنبق الماء كما
 لو انها تريد اجتذابك نحو قصر ريفي قصير أنيق يتحرق في كريستال
 مقبض خجول ويحيط به ذهب الحور الشاحب .

وتؤكد اذا انتقلنا الى الجغرافيا الاقتصادية والغذائية والمذاقية انه
 قد توغل الى كافة الميادين واحب كل انواع مذاق ريفه . ويمكننا ان
 نردّد نفس الشيء عن تاريخ منطقته ومبانيها وقصورها وكنائسها
 ومنازلها فقد وجد فيها موضوع أو ديكور عدة قصص . كذلك
 لم يكن بوسع بلزك أن ينسى سكانها فكرس لها في « جوديسار
 المشهور » فقرة طويلة : وهو يشير الى ان ميزاتها هي الانعكاس
 الحقيقي للطبيعة المكتنفة بها . وقد اسند بفضل نظريته حول البيئة
 نفوذاً كبيراً للتوران . اذ تتوفر في مواطن رابليه السخرية والهجاء والفكر

القصصي الماكر! ولكنه بالاضافة الى هذا كله فهو موطن القصور الرائعة وارض الملذات التي عمز الملوك والملكات ومحظيات الملوك وجلساؤهم والفنانون ان يتخلوا عنها في عصر الانبعاث... ففي هذه الاجواء تطفو الرقة والادب، والشغف بالفنون الجميلة، والشعر الملتبب والعطر المثير. هذا ما يتشقه الوليد في توران مع أول رشفة عبير. ولكن لا بد من نقل التوريني الأصيل الى مكان آخر لتطوير كل هذه البذور وتحقيق الوعود التي تضمها وإلا فان نعومة الهواء وجمال المناخ وسهولة العيش تنال من ارادته على المدى البعيد. واطن ان بلزك يطري نفسه هنا وبامكاننا ان نرد عليه ونفند له القول ونقدم له الحجج! لماذا كان يعود دائماً ليجدد قواه في هذه الاجواء؟ اذن، نجد في معارضته أدباً أكثر مما نجد فيها تعبيراً عن الواقع. ويدل الانتصار الذي يحققه سكان قوقريه على جوديسار ملك الوكلاء المتجولين والمتشدقين النورماندي الاصل، الذي بات باريسياً بالتبني كما تبين قوة ثرثرته المخاتلة على الاحتدام الذي كان يكنه لمواطنيه الذين يقاسمهم ميزاتهم واخطاءهم المحببة في غالبيتها. كم من مرة اعرب عن رغبته في قضاء أيامه الأخيرة في هذه المنطقة التي احبها! فقد كتب مثلاً الى راتية (Ratier) مدير الخيال (la Silhouette) في رسالته المؤرخة في ٢١ تموز ١٩٣٠ وأه لو كنت تعلم ما هي اللورين... لقد بت اعتبر النجاح والجلس النيابي والسياسة والمستقبل والادب ككريات لحم مسموم لقتل الكلاب الشاردة التي لا مأوى لها، وأرى ان: الفضيلة والسعادة والحياة هي ايراد ستائة فرنك على ضفاف نهر اللوار

(Loire) .

ثمة كثير من الأقاليم التي ساهمت بمواردها في تغذية وحيه : إيل دو فرانس (Ile-de-France) ، برِّي (Berry) ، بورغوني (Bourgogne) ، بروفانس (Provence) ، سافوا (Savoie) ، كونتا (Contat) أنغوموا (Angoumois) ، بريغور (Péri-gord) ، دوفينه (Dauphiné) : فقد كان من الواجب ذكرها كلها .

ما من اقليم من هذه الأقاليم شرف بحب أكبر من حب هذا الابن البار الفخور بأصله .

وبامكاننا ان نستتج بدقة انه لولا تأثير مسقط رأسه عليه ، لما استطاع بلزلك ان يكتسب معنى الوحدة ، والمقياس والانسجام التي عوّضت ، ولو جزءاً يسيراً ، من صلف وحمية وراثيته الجنوبية .

لقد عرف ان يعطينا الاحساس بالحياة الاقليمية . وان يعين ذهنية كل اقليم . فأبدع في تصوير المدن الصغيرة الغارقة في ماضٍ من الكتابة لأن مجدها الذي ساد قد باد الى الأبد .

وأحب ان يبعث مآثرها من جديد : بروفانس (Provins) ، بيارات (Pierette) ، إسدون (Issoudan) ، لارابويوز (La Rabouilleuse) ، سومير (Saumur) ، أوجني غراندة (Eugénie Grandet) ، الونسون (Alençon) ، العانس (La vieille fille) ، لوكابنية ده انتيك ، (Le Cabinet des Antiques) ، نموى (Nemours) اورسول ميرووا

(Ursule Mirouët) ، انغولام (Angoulême) ايليزيون باردي
(Illusions perdues) ، سانسار (Sancerre) لاميز دو دبرتمان
(La Muse de Département) ، بزسون (Besançon) البارت
سافاروس (Albert Savarus) ، الخ ..

فييت ، أو أثر تذكاري ، أو أثار ، أو اشراقه مثيرة للاعجاب
كانت تكني لتكثيف الأفكار المرشدة للبيئات الاقليمية ، بغية كشف
ما استتر من حياتها المخنوقة .

لكن علينا الأثق بهدوء هذا الجو ، فهو يغلف ويخفي من
الأجواء ، والمصالح المتضاربة ، والانفعالات الساخنة للخصومات
المتعددة الأنواع ، والأحقاد ، الشيء الكثير .

وتثار على الفور لويحة المدينة الصغيرة التي شرع بها لابرويار
(La Bruyère) : « هناك شيء لم نره مطلقاً تحت السماء ،
والذي ، حسب كل الدلائل ، سوف لن نراه أبداً : هذا الشيء هو
عبارة عن مدينة صغيرة لم تنقسمها الأحزاب ، عائلاتها متحدة غير
مضككة ، وأبناء العم فيها يتلاقون بكل ثقة ، والزيجة فيها لا تحدث حرباً
أهلية ؛ ... منها أبعدت الثرثرة ، والأكاذيب ، والغميمة ... » .

وكان بلزك أول من دفع بهذا الكشف حتى في ادق التفاصيل في
العادات : لا احد قبله كان قد اماط اللثام عن الأسرار المأساوية التي
تخفيها الرتبة الواضحة للحياة الاقليمية حيث الحساب والتفكير المستمر
« يعبران قيماً كبيرة لأعمال ليست ذات قيمة » .

وأخيراً ، فقد أوضح التغييرات العميقة التي كانت الثورة قد حملتها في تخمين القيم الاجتماعية ، وفي العلاقات ما بين فئات الشعب الواحد . فالبورجوازية الصغيرة تستولي على السلطة السياسية التي كانت بجوزة النبلاء (الفلاحون) . والحضومات تتفاقم ؛ «النَّظْمُ أصبحت رجالاً ، ورجالاً ذوي اهواء لا تقف عند حد ؛ فهم ينظرون الى بعضهم البعض وكأنهم مبارزين ، منهمكين بكرامية بعضهم كلاحي القمار المعدومي الرحمة» .

وتخلق الآراء السياسية مودات خاصة تنعكس على الأطفال . وفي هذه النقطة كما في الكثير غيرها ، كان بلزاك مؤرخاً : فهو لم يكتفِ برواية ما يراه وحسب ، وانما ما يستعلم عنه في محادثاته مع الأهل والأصدقاء .

وقد لوحظ ان بلزاك كان يهتم بالحقائق الاجتماعية أكثر من اهتمامه بلوحات الطبيعة . فهذه الأخيرة ، لا ترتدي طابعها العميق ما لم تكن ممزوجة بدراما فكرية ، تعلق وتبلبل روح الأشخاص : فبأعينهم ، ومن خلال أفكارهم ، يشاهد القصصي ظروف المنظر الطبيعي ، وظروف العاطفة والوجدان . وفي هذا الصدد كثيراً ما نستشهد بـ «طبيب الريف وخورى الضيعة» Le Médecin de Campagne et le Curé de Village

فالدكتور بناسي (Bénassis) بقلبه الحزب بالحنية ، وبذكري ضعفه وخَوْرِهِ ، نطق بهذه الكلمة : «حب الطبيعة هو الحب الوحيد الذي لا يجنِّد الآمال الانسانية ، فلا وجود لحنية الآمال في الطبيعة» .

ويفرح «بلذات» عظيمة بشعوره «بالروائح المنبعثة من صُنغفية شجر الحور ومن عرق الأشجار الحرجية» هو نوع من «الاحاسيس لا يشك بها أناس المدن». ففي الجادة الرائعة «رواق من الاخضرار حيث وقع حوافر خيولهم ترن كما لو كانت تحت قباب الكاتدرائية». وبال تأكيد، يوجد هنا شيء ما ديني، كما يقول بناسي للقائد جناستا (Génestas)، وشعورنا بصغارتنا وتفاهتنا يُعيدنا دائماً امام الله». وفارونيك غراسلن (Véronique Graslin)، يستخلص الشيء نفسه من زهاته على جواده خلال غابة مونتنيك (Montégnac). فروحه الموحشة، المعذبة بوخز الضمير، تشترك مع «الحزن العميق الذي تعبّر عنه هذه الطبيعة الوحشية، المحرّبة، المهجورة، والمجدبة في آن معاً، والتي تتجاوب مع مشاعره المحبّاة». وبالنهاية، فإن الهدوء الصارم، وسكون القمم المشجرة، توجّه افكاره واحلامه نحو «نسق ونظام من الأعمال» ارفع، واعلى مرتبة من تلك التي تصب فيها عادة: يجب الخضوع لقانون الاستغفار.

فلازمة الأخلاقية التي يتخط فيها كل من ضمير بناسي وفارونيك، تتطلب بأن تقوم مشاهد الطبيعة بتوجيه خط سير افكارهم الثابتة نحو هذه الاعلاء الدينية. الشيء عينه حصل لكامي موبان (Camille Maupin) بياتريكس (Béatrix)، التي خاب ظنها في حيا لكاليس دي كانيك (Calyste du Guénic): فلا نهاية المحبط رمته بين أذرع الله. لابورس (La Bourse)، لابوده شاغران (La peau de chagrin) ابنة الثلاثين (La Femme de)

(Le Lys dans la vallée) الزنبق في الوادي (trente ans) كل هذه المؤلفات تدلنا على أنّ ساعة الأصيل تتحدى الأحلام الناعمة حيث يجد القلب بلسماً وعزاءً لعذاب الحب ، أو إثارة ملائمة للزهد بالمداعبات والملاطفات والاعترافات المضطربة : هنا تصبح الطبيعة شريكة للعشاق . لهشوان (Les chouans) ترفض بشكل تام علاقات الطبيعة مع جسم الانسان : ولسوف نرى ذلك فيما بعد . فأوصاف الطبيعة تغزر في «الملهاة الانسانية» (Comédie Humaine) حيث نستطيع ان نؤلف منها مجموعة مهمة : فالبحر والجبل والوديان يكثر وصفها فيها مع بعض الإطالة والاطناب حيناً ، وبعض الكمود والشحوب حيناً آخر . فقاطعة جبال دور (Dore) وقة ساني (Saney) قد أثرت في «فروة الهم» (La Peau du chagrin) ، وهي بمثابة وصف طوبوغرافي للمنطقة .. والكاتب يكدّ نفسه في مضاعفة التناقضات . ونحن نحسّ بهذا المجهود المضني في البحث والتنقيب عن التعابير الغريبة . فلنقرأ ثانية في كتابه «خوري الضيعة» قصة العيد حيث يحتفل بتدشين السد الذي يحول وادي غابو (Gabou) ، كلية مؤمناً له حضوبة رائعة ، وجاعلاً من متزّه موتانيناك مكاناً للسحر والافتتان . على انه يجب ان نعترف بأنّ هذا الوصف كان ينقصه الوضوح والرونق ، فتكثر فيه الصفات المتبدلة والعادية : «اناقة تامة» «تأثير ساحر» «مرسوم بتفوق» «مواقع جميلة» «اثاث جميل» «لمتلز ريفي صغير» «جداول صافية» ، «يوم رائع» ، «شلالات شجية» .
هذه الكلمات وهذه الصفات لا تحمل معها موكبها من الصور البصرية

والسهمية . فتوقف عند هذه العينات لتقتنع بأن لوحة الوان بلزاك تحتوي
أحياناً على الوان غير براقة . فالابتكار الفعلي هنا غير متوفر ، ولا يُعادل
دائماً القوة الانفعالية امام مشاهد الطبيعة .

وكم من تكرار في أسطر قليلة ! وبالمقابل ، فإن الكتاب ذاته ،
وعلى بعد صفحات قليلة ، يقدم لنا انطباعاً جميلاً بمساء القرية ،
ومشهداً للحصاد حيث النداءة والحقيقة والواقع تعطي جميعها للشعر
اجنحة ، وتشير الى حساسية صادقة : فهي لا تتطلب أي تسامح من
المعجب .

وجملة القول ، ان بلزاك وإن لم يصل الى اشراق وسطوع
شاتو بريان (Chateaubriand) وفيكتور هيغو (Victor Hugo)
فإنه كان موهوباً بملكة نظرية ، وعندما كان يصف فإن لوحاته كانت
تسحرنا ، وان لم يكن ذلك دائماً ، باحكام قسماتها أكثر من اصالة
تعابرها .

- ٢ -

بداية النجاح

ظهرت موهبة «الشاعر» كما سماه رفاقه في ثانوية قاندوم منذ كان في الصف الثالث متوسط. وقد تابر «القرزام» في شغفه. ولم تكن محاولات المبتدئ تتعدى ميدان الشعر عام ١٨١٨. فكانت «رومانسية» وفق اسلوب لامارتين، ثم مدعية كلاسيكية وفق اسلوب فولتير. وقد حاول كتابة الملحمة مقلداً لاهانزياد ثم انكب على كتابة مأساة روائية (كرومول) ١٨١٨، إلا ان فشلها الذريع دفعه إلى التحول نحو آفاق أخرى في طموحاته الأولية. وكانت الفلسفة قد اجتذبتة، فقد تابع في السوربون في الفترة الممتدة بين عام ١٨١٧-١٨١٩ محاضرات فيكتور كوزان (Victor Cousin) الذي «كان يبدو ككائن غريب قادم من عالم لا مرئي لاعلان أمور مجهولة» كما يقول فيليب داميرون (Philippe Damiron). واذا قارنا بين النظريات التي كان يجهر بها لويس لامبير في رسائل باريس المؤرخة العام ١٨١٨، بينما كان يتابع دراسته في السوربون، والأفكار التي عاجلها فيكتور كوزان في نفس الفترة فاننا سنلاحظ محاكاة دقيقة وشبهاً غريباً. لقد كان فيكتور كوزان يدرس الأشكال التي اتخذها الشعور الديني على مرّ القرون في كل اثارها لدى كل المتحلين بموهبة خارقة ولدى معلميه الأسرار (معلم الأسرار كاهن يوناني قديم كان

يلدرب على أسرار الدين). ويبحث في قوانين علم النفس الفيزيائي عن تفسير لهذه الظواهر، واضعاً على نفس المستوى دلائل التعصب ومظاهر القداسة المسيحية الحقيقية من كشف ونشوى وذهول التي أصبحت حكمة لكتاب «الكتاب» الصوفي « (le livre Mystique) ، «المحرومون» (les proscrits) ، «لويس لامبير» ، «ساروفيم الملاك الطاهر» (١٨٣١-١٨٣٥). وكان بين تكون وتطور المعتقدات في ظل التأثيرات العرقية والجغرافية ، ومجد أن هذه الفكرة قد احتلت دوماً جانباً كبيراً من أفكار بلزك الذي كانت تقلقه بصورة أساسية قضيتان : الوجود والروحانية ، خلود الروح . ويستدعي مثل هذا الاهتمام لدى شاب في الثامنة عشرة من العمر التقدير الذي كان باسكال يكنه لهؤلاء الذين يتفاعلون معه . وقد اقتنع بلزك بتفسير علم النفس الفيزيولوجي «كابانيس» (Cabanis) المتوافق مع فلسفة القرن الثامن عشر الجدرية واعتنق الإلحاد أو التاليلية (مذهب التاليه الذي يقر بوجود الله وينكر الوحي والآخرة) المهمة إلى حد تبقى معه غير فعالة على صعيد الضمير الانساني . وقد دون أفكاره في (ملاحظات حول خلود الروح والدين والفلسفة).

لماذا يجب أن نكرر الحديث عن الحياة القاسية التي عاشها الكاتب المبتدئ عام ١٨١٩ في شقته شارع ليدي جيار (Les diguières) القدرة؟ من الأفضل أن نتابع حبو فكره وخطواته الأولى. لقد استعمل هذه الملاحظات في محاولاته الرومانسية

الأولى (فالثرين) (Falthurne) وخصوصاً سترني أو الأخطاء الفلسفية (sternie ou les erreurs philosophiques) (١٨١٩) .
وتعتبر هذه الأخيرة رواية تراسلية تأثرت إلى حد ما بأنفاس إلويز الجديدة (la nouvelle Héloïse) . وتوازي كل رسالة موضوعاً فلسفياً (ألفه طالب الفلسفة بلزاك) . وتدلل الحجج على عبثية مبادئ علم اللاهوت الكاثوليكي وخصوصاً مبدأ وجود الله والروح والجمال ووضوح الحقائق القياسية التي تفوق الحقيقة المكشوفة والمعروفة وتتفوق عليها . كذلك نجد ان بطاقاته الناعمة مغمسة بأريج الماورائية .
وقرب هذه الصفحات سياء مؤلفها المعنوية . فهو يحلل نفسه . ويحدد وضع إبحاره الفلسفي ويقيم موضعه الأخلاقي والديني والعاطفي في نهاية الرحلة لدى وصوله إلى ميناء الملذات التي يوفرها له الحب الزنديق بعد أن يقضي على كل مبادئ الايمان والأخلاق المسيحية في روح عشيقته لدفعها إلى الزنى بصورة أبسط . «استيني» هي أولاً ملف انساني وفلسفي من الدرجة الأولى وهو يقذف فيها حزمة من الضوء والشعاع على مركز مريح استغل إلى أبعد الدرجات في «الكوميديا الانسانية» كما في ساروفيم الملاك الطاهر .

لا بد من الاشارة إلى الفترة التي عاشها بلزاك في مكتب الكاتب العام ١٨١٧ في مكتب كاتب عدل العام ١٨١٨ لأنه سيحيي أجواءها في عدة روايات وخصوصاً الكولونيل شاير (Colonel Chabert) «وبداية في الحياة» (Un début dans la vie) . وسيستغل المؤلف ملاحظاته على

سياء الزبائن التي كان يقرأ فيها الانحطاط والبؤس ، وعلى اخلاق
للكتابة ، وسير الاجراءات وجهاز العدالة وجلسات المحاكم ...

نجد أن بذور أفضل نتاج بلزك الأدبي ، على الأقل ، فيما
نخص وسائل الفن والتعبير في مؤلفاته الأولى التي تشكل مجموعة من
اثنين وثلاثين مجلد صدرت في الفترة الممتدة بين العام ١٨٢١ والعام
١٨٢٤ تحت اسماء مستعارة مختلفة «لورد رهون»
(Lord R'Hoone) . «أوراس دوسان أوبــــــــــــــــان»
(Horace de Saint Aubin) ، «فيلارجليه» (Villerglé) ، (وقد
صدرت تحت عنوان مؤلفات أوراس دوسان أوبان الكاملة لدى
الناشر سوفران . في الفترة الممتدة بين عام ١٨٣٦ وعام ١٨٤٠) وهي
« وريشة بيراغ » ، «جان لويس» ، (الفتاة اللقيطة)
(la fille trouvée) «كلوتيلد دولوزينيــــــــــــــــان»
(Clotilde de Lusignan) (اليهودي الجميل) (le beau Juif)
«العيد المشوي» (اثنان من عائلة برنجيلت)
(Les deux Beringheld) «كــــــــــــــــاهن الاردان»
(Le vicaire des Ardenne ، «الخيبة الأخيرة» (la dernière fée)
(المصباح السحري الجديد) ، «انيات والمجرم» ،
ملحق لكاهن الاردان التي أعيد طبعها عام ١٨٣٦ تحت العنوان
الأكثر شهرة (أرغو القرصان) «وان كلور» Wann Chlore التي
أعيد طبعها تحت عنوان جان الشاحبة . ويطلقون عليها عادة اسم
مؤلفات الشباب (œuvre de Jeunesse) . كذلك سيمثل رفاقه

أصحاب المصنفات المختلفة المواضيع والذين لم يحققوا في غالبيتهم تطلعاتهم إلى الشهرة كما نذج في «الكوميديا الانسانية»؛ فينو (Fino) في (قيصر بيروت)، لوستو في (ربة فن المقاطعة)، لوسيان دورينبريه Lucien de Rubempré في (الأوهام الضائعة).

لقد أسرّ بلزك إلى شانفلريه (Chamfleury) قولاً بات اليوم يعتبر تبجحاً من الماضي: «لقد كتبت سبعة روايات بسيطة كالدراسات، واحدة لا تعلم الحوار، والثانية لا تعلم الوصف، والثالثة لا تعلم الجمع بين الأبطال، والرابعة لا تعلم فن التأليف...» وتتيج هذه العبارة للنقاد، اعتبار هذه المحاولات تجارب والبحث للعثور على النموذج الذي يجهد الطالب بنقل بعض سبله التقنية. وقد تحقق من هذا الأمر ألبير بريو (Albert Prioult) في (بلزك قبل «الكوميديا الانسانية» وموريس برداش (Maurice Bardèche) في (بلزك الروائي) وقد سجل الأول بدقة أسماء كافة الكتاب الذين حاول الكاتب الشاب المبتدئ مجاراتهم ودون الثاني كافة أسرار طريقة الصنع التي اخذها عنهم حرفياً لاكتساب أسرار المهنة: لقد درس بلزك الرواية واستفاد... إلى عهد قريب كانوا لا يتحدثون عن نتاج الشباب إلا لوضعه في أقل المرتبات وتعريته من كل أهمية وتجريده من كل قيمة أدبية إلا ان هذا الأمر لم يعد مقبولاً اليوم؛ فقد بدأ الشاب المدرج باختيار أساتذته وقد أعلن هذا فيما بعد على لسان «جوزيف بريو» (Joseph Bridau). في (معركة المياه): «لقد كان يكثر من المطالعة ويوفر لنفسه هذه الثقافة العميقة الرصينة التي لا نكتسبها إلا

بأنفسنا ، هذه المعرفة التي ينهل منها كافة الموهوبين في الفترة المتراوحة بين العشرين والثلاثين من عمرهم . وفيما يلي بعض المراجع التي أشار إليها هو نفسه : بيرون (Byron) ، فينيمور كوبر (Fenimore Cooper) ، آن رادكليف (Anne Radcliffe) ، ماتيران (Maturin) ، وولتر سكوت (Walter Scott) (الذي سيكون تأثيره حاسماً وعميقاً) ، رابليه (Rabelais) ، موليير (Molière) ديدرو (Diderot) ، مونتسكيه (Montesquieu) ، لوك (Locke) ، جان جاك روسو (J.J. Rousseau) برناردين دوسان بيار (Bernardin de Saint Pierre) ، بومارشيه (Beaumarchais) شاتوبريان (Chateau Briand) ، دو كريكه - دومينيل (Ducray Duminil) ، بيجو لوبران (Pigout Lebrun) ... كذلك تناولت قراءاته عدداً كبيراً من مؤلفات الكتاب المنسيين اليوم . وكان يحاول دائماً أن يضع مؤلفات على غرار هذه الفنون الأدبية المتنوعة كروايات المغامرات ذات الحبكة الغرامية ، والرواية التاريخية ، ورواية المغامرات والرواية العاطفية ، ورواية الرعب ، والرواية الخرافية ، والرواية المفزعة والرواية الغمرية (التي تتحدث عن حياة المتشردين) . وتوفر له أحداها أو الأخرى مخطط مؤلف أدبي للتمرين وفكرة رئيسية قابلة للتقليد : المحاكاة الساخرة ، الحوار الضاحك أو المأساوي ، والوصف الخ ... ويعتبر «أرغو القرصان» (١٨٢٤) محاولة لكتابة رواية نفسية . ويمكن الأخذ به كدليل على التقدم الذي حققه في بناء الميزات والعقدة باللجوء إلى

الاهواء وليس إلى التقليد والتزييف الفاضحين. كذلك فهم شيئاً فشيئاً ان أفضل مصدر للروائي هو نفسه بعيداً عن كافة التقنيات. وكان يسكب تجاربه الشخصية ومفاهيمه في الحياة ومحيطه الخاص في الخليطة التي يقدمها له التقليد. لقد ألقى وسطه العائلي في الحلبة وافتتح به معرض الرسومات المكرسة لأصدقائه الموثوقين.

أطلق أحد سماسرة الأدب أوراس ريسون Horace Raisson عام ١٨٢٤ موضة المصطلحات الأدبية وقد استخدم في ذلك بلزك الذي كان في بداية شهرته الأدبية فنشر عام ١٨٢٥ «مصطلحات المستقيمين» Code des gens honnêtes. وقد حث هذا النوع الهجائي قريحته فننحدها في قوانين مختصرة. كما في المصطلحات القضائية، العادات والمحظورات الاجتماعية. ولما أصبحت أكثر حدة قوة ملاحظته، وصف بعناية عالم النفس الفيزيولوجي وفسر التفاصيل الخارجية للشخص والمواقف والملبس والأثاث واعتبرها إشارات وبيانات إيجابية عن الطبع الأخلاقي. فننذ عام ١٨٢٢ باشر بلزك قراءة ملف لافاتييه (Lavater) حول «فن معرفة الناس من خلال سحتهم» وقد طبق مبادئه بقناعة إلى درجة لم يتردد معها في إيجاد تفسير واقعي متشائم بعض الشيء للحياة الاجتماعية التي تعتمد على المال في كل حركة، في كل ادعاء، في كل تعبير وجه. هذا فيما خص معنى الفكرة أما فيما خص معنى الشكل فان هذه الخطوط السريعة وهذه الأطياف البشرية تعلن عن عدة مراحل وعدة شخصيات من الكوميديا الإنسانية.

بعد المال أتى الحب. وفيزيولوجية الزواج التي صممت عام ١٨٢٤ وكتب نصفها عام ١٨٢٦ لن تظهر بشكلها النهائي إلا عام ١٨٢٩. وهي تعتبر نقداً «لاذعاً» للعادات المعاصرة له. إنها المأساة الأبدية التي تضرب ثلاثة أشخاص منذ ظهور الأفعى أمام الزوجين في عدن ورغم كثرة الاقتباس فيها، فإن هذا الإنتاج يدهش بقوته في الملاحظة والتحليل. هذه القوة غير الشائعة لدى كل كاتب شاب. وأي تشاؤم في النظرة إلى الزواج نجد فيها، فقد تجاوزت السخرية الحدود وصبت ادعاءها في كلمات بطرة منمقة معسولة. مما أفقد المؤلف البعد المعنوي الذي أراد صاحبه إضفاؤه عليه بتهمته إلى حد التطرف هذه المؤسسة الجادة والمقدسة. أما من الناحية الأدبية فقد جاء هذا الكتاب مزيجاً كبيراً.

وبتنا نعرف الآن متى يجب أن ندرس مؤلفات الشباب ورموز المستقيمين. ذلك أن البدء بها هو تجربة مضرة ومخيبة للآمال. وإذا رغب أحدهم بمتابعة تطور الفن والفكر لدى بلزك فلا يسعه ذلك إلا إذا عاد إلى البعيد إلى مرحلة التجارب والتردد والتجارب المتكررة هذه.. لا بد له من الخروج من مرحلة الكوميديا الإنسانية الباهرة والتوغل في ظلمات البداية لنجد فيها هذه الصفحة أو تلك المليئة بالعودة السعيدة.

أهمل بلزك في الفترة الممتدة بين عام ١٨٢٥ وعام ١٨٢٨ الأدب وانصرف إلى النشر والطباعة فقد كان يرغب في الإثراء السريع إلا أنه خرج من هذه المغامرة المأساوية محكوماً عليه بالبؤس

الفوري وبجياة مستقبلية - وهذا أسوأ ما في الأمر - مليئة بالتدابير المالية والحجج. ونلاحظ في هذه المناسبة قدرة الكاتب على إعادة توفير أجواء الشجون المحيطة به بغمس المغامرات الخيالية فيها.

لقد وضع رينيه بوفيه (René Bouvier) وإدوار مينيال (Edward Maynial) في حكايا بلزك المأساوية (Les contes dramatiques de Balzac)، قصة هذا الإفلاس مفصلة والمشاكل التي خلفها لهذا الصناعي المتهور، ضحية قصوره المهني، وهي تبرز بوضوح شائبات مميزة تنزع بصورة طبيعية إلى الترف والتبذير.

لندرس آثار هذه النكبة التجارية على تاريخ عظمة وانهيار قيصر بيروتو.

L'histoire de la grandeur et de la décadence de César

Birroteau حيث استغل الكاتب خبرته التي اكتسبها كمتنمر في مكتب كاتب العدل واستفاد فيها من ذكرى محنته وقلقه حين كان يتخبط شرفه وشرف عائلته بين ابن العم سديو (Sédillot) المكلف بتصفية مطبعة بلزك والمستحقين. ولا تفاجئنا دقة استعمال التعابير القانونية ولا معرفته بتطور مراحل هذه العملية القضائية ولا عمق تحليل نفسية المفلس، فهذا الضمير كان ضميره قبل أن يكون لبيروتو، لقد لاحقه هذا الشعور ومزقه الخوف من الغد والفرع من المرابين ورجال القانون والمدينين. وقد وفرت له تجاربه كناشر ومفلس ملفات سيستعملها أيضاً في الحظر (l'interdiction) مجلس

القدامى ، والأوهام الضائعة . وتتسم تأملاته بالصدق كذلك يقود تحليلاته النفسية بثقة كبيرة ما كان يملكها لولم يمر بهذه التجربة ، فهو يضع الحكايات دون أن يمكن القول أن شيطان الشر الخلاق هو الذي يوجهه ويلهمه . إنه يسترجع ذكرياته ونحن نسترجعها معه . وما قد بتنا المؤمنین علی أسرارہ .. وتصطبغ لذة القراءة بالجدية . وتثرى بالأحاسيس لأن أصداء شكواه ترند من روحه إلى أرواحنا وتخرقها وتسبها .

وهكذا نجد أن حقيقة السيرة الذاتية تختلط بالخيال في عدة روايات وتلهب الحكايات حساسية بلزاك وتحيي أجواء سعادته وآلامه في كافة مراحل حياته ويبب الأبطال بأسمائهم المستعارة من أحلامه بوجودهم المعروفة المحبوبة أو المكروهة . ونحن لا نحاول إخراجها من ظلمات السر والغموض لإشباع فضول البحثة بل للشعور بلذة شهادة المعجزة الفنية الكامنة في التحول الأدبي :

توجب علی بلزاك عام ١٨٢٨ الإهتمام بكسب حياته بعد أن زال خطر الإفلاس فالتفت إلى الأدب ليرتبط به بصورة نهائية . ويروج في ذلك الحين إعادة كتابة التاريخ ولم تكن محاولات بلزاك الأولى وريشة بيراغ (l'héritière de Birague) كلوتيلد دولوزينيان (Clotilde de Lusignan) (١٨٢٢) ناجحة وكان يقسو في الحكم عليها . خطر له الإنصراف إلى قراءة مذكرات الثورة وحربي فاندیه Vendée ، فشغف بها والتهب خياله وجاءت رواية الناثر الملكي الأخير أو برينانيا عام ١٧٩٩ ، والتي سماها فيما بعد

الثوار الملكيون ، التي اعتبرها الرواية الأولى الجديرة بالإنتساب إليه فوقها .

ولم تعد معلومات الكتب تكفيه وقد ابتكر وسيلة التوثق التي سيلجأ إليها فيما بعد بذهابه إلى فوجير (Fougère) ليتشبع من الأجواء التي تدور فيها أحداث وجبة الرواية التي يصفها . لقد باتت عيونه تحتاج إلى تأمل المناطق التي يريد وصفها ، وصارت أذناه تتوق إلى سماع أصوات الناس في محيطهم . لقد سألهم وجعلهم يتحدثون واستمع إليهم وجمع التعابير المستعملة في الناحية ولاحظ عادات الناس فيها فبات بوسعه إعادة بناء المأساة على حقيقتها في الطبيعة التي تتحول إلى شخصية أسطورية يستمد منها الأبطال دوافعهم ويتحدون معها في غلبان مشاعرهم . لقد فهم ان لا شيء يضاهي كون المرء حقيقياً صادقاً فترك الواقعية الطبيعية تغزو وتبتاح كيانه بكامله قبل أن يطبعها بالشاعرية . لقد نزع من المخلوقات الحية أو الجالدة والأجواء المحيطة به حتى اللامرئية منها أسرارها ومعانيها وفاجأ الهمسات الغامضة التي تتخذها وسيلة للإتصال بفكر الإنسان ، وكاد يؤمن بالقيمة الحقيقية لهذا الترجان الروحي ، فعلى كل مفترق طريق تبرز عبقرية بريطانيا وتنبجس متنبه كنصير يشجع خطوات العاشقين مونتوران (Montauran) وماري دو فرنيل (Marie de Verneuil) . أو أنها تحبثان وتلبدان خلف كل دغل (مجموعة من الجنبات البرية والمتداخلة الأغصان) ، صابرة كجاسوس يود إفساد مناوراتهم . ويرى البعض أن «كل» فينمور كوبر (Fenimore Cooper) كامن هنا ،

وخذع الثوار الملكيين هي تكرار لحيل الموهيكان (Mohicans) .
كذلك يعلن بلزاك ويدل على كل والتر سكوت
(Walter Scott) باتباعه حرفياً تعاليم استاذة . فقد عمل الروائي
بدلاً من نقل شخصية عظيمة أو حدث تاريخي ضخم على تفسير
الأسباب والعلل بصورة عامة بوصف عادات كل الناس وأفكار ذلك
العصر .

لقد رسم بلزاك خطوطاً عريضة في خلفية لوحته وهذا بصورة
واضحة يطلعنا على إثاره السياسي . لقد اختطها باللون الأزرق أي
الملكية الليبرالية العقائدية .. فنازعه البعض وساق دليلاً ضده لامبالاته
فيما خص الدين رغم أنه في الوقت الذي كان يضع فيه مؤلفه في
قصر فوجير (Fougères) لدى آل بومرول (Pommereul)
كانت مناظرته الخطابية الملحدة مع مضيفته دلائل واضحة على
فولتريته (تعلقه بفولتير وتحمسه له) . ويعلن الأمر الشجاع هولو
(Hulot) والكابتن ميرل (Merle) والرقيب جيرار (Gerard)
« هذه النفوس المزيدة للجمهورية بحق « المتفانية فعلاً » التزينة القوية
يعلنون عن هدف مهمتهم المزدوجة « إنقاذ العقائد والوطن » ومبدأ
الحرية والغزوات من « المنطق الإنساني الذي أيقظته جمعياتنا العامة .
وقد أنزل معتقدات الفلاحين الذي يستشهدون للدفاع عن
كاثوليكيتهم إلى التيمية (عبادة الأشياء المسحورة) و « التعصب المظلم »
و « التطير » . لقد منح اليسوعي والموجه غودين (Gudin) نفساً جشعة
طموحة متعصبة مفرطة في التضليل الماجن فجاءت صورة هزلية تبرز

أكثر بالمقارنة بالصورة الباهتة والكامدة التي مثل بها الكاهن الذي يصر على الحفاظ على العادات القديمة المتدنية رغم المخاطر.

• وماركيز مونتوران (Montauran) شجاع وكريم إلا ان قلبه هواه المجنون وانتصار حبه يؤدي إلى فشل القضية التي يدافع عنها. فهو ليس إلا دمية زائفة بالنسبة إلى القائد الحقيقي... وظهرت ميزات الأمرهولت (Hulot) هذا المواطن العظيم بمظهر الفخور المحبب. أما بقية الأنصار من النبلاء الطائشين فانهم يبدون كمدافعين تافهين عن التاج والمذبح. فهم يلجون على رئيسهم ليزكهم إلى الملك ولا يحملون إلا بالمناصب والمغانم والأوسمة الرفيعة والإمتيازات.

وتبدو النكات الملاجئة التي يطلقها الكونت بوغان (Beauvan) أمام المذبح خلال قداس تكليل مونتوران (Montauran) وماري فرنويل (Verneuil) كرية تحرق القدسيات في مثل هذه اللحظات الرزينة القريبة من الله وجه الحق. وأكثر المشاهد إجماء وأكثرها دلالة في الرواية هي قداس « الثوار الملكيون » الذي يعقد ليلاً في فرجة غابة ويشبه بلزلك هؤلاء الفلاحين الجائنين بأسلحتهم أمام هوستي (Hostie) بالمتوحشين الفظين الراكعين أمام تيميتهم (كل فينيمور كوبر) (tout Fenimore Cooper) فهم لم يكونوا يشكلون بالنسبة إليه إلا حدثاً وليس نظاماً وكانت العبادة صلاة ولم تكن تدنياً. وهو يرى أن هذا الاحتفال المقدس بانه ملهاة تهدف بنظر منظميها الذين انتهكوا الإكليروس وفضلوا عليه المصالح السياسية « إلى تحريك أهواء النفوس الفظة ». لقد تحول صليب المسيح المسالم إلى أداة

حرب . وهنا يطلب من الأجواء التاريخية تفسير الحدث حيث يشوهه الروائي بتضخيم الشواذب وتبسيماها ويحرفه بمحصر البعد السماوي للمأساة المخارقة بالأرض ، فهو لا يتأمل منها إلا زخرفتها ولا يسند إلى الثورة الملكية البطولة الرائعة والعنيدة إلى الإيمان الجموح لعدم تعاطفه معها .

حين أعاد بلزك قراءة رواية « الثوار الملكيون » بعد عدة سنوات نقل إنطباعه إلى السيدة هانسكا (Hanska) « أنها قصيدة رائعة ، رفيعة الأهواء جليلتها ، وصفت فيها المنطقة والحرب باتقان وسعادة فاجأتني .! المنطقة والحرب هي ظاهر المأساة ، والأهواء السامية هي الحافظ السري ، إنها شغف بلزك بالسيدة برني (Berny) أولاً في الطبعة الأصلية ثم بالسيدة هانسكا في طبعة عام ١٨٣٤ وقد أدخل عليها التعديلات . نالبتلة ماري تتمتع بالسحر والجاذبية والحظوة وحتى بالعفاف العذري . وهذا التغيير الجريء للمخلوقة الساقطة السافلة والحاسوسة المسترة والعاشقة العظيمة ، يظهر ميول الشاب الباحث عن السعادة الهائمة ، واضطرابات حبه الأول . وكان بلزك يمنح أبطاله كل الجاذبية التي يراها ويعلم بها في ظل وجه المحبة ثم الغريبة ... كانت قصيدة أفراده الحميمة ، كذلك كانت التحام كل محاولاته الأدبية السعيد . فالمادة التاريخية التي منحها له بريتانيا والثورة الملكية قد أتاحت له استعمال الجناس والتطابق في الوصف والأفكار والميزات .. كما كانت كل شخصية تمثل نموذجاً وتعبر عن طبقتها الاجتماعية . فونتوران (Montauran) الشاب الأنيق الشجاع يعطي

صورة جميلة عن الطبقة النبيلة الفرنسية ، وغودين الكاهن المتعصب يعطي صورة عن رجال الدين في هذه المناطق ، الأمر هولو (Hulot) الجندي المعجوز ذا الوجه العبوس يعطي صورة حبه عن هذه الجمهورية . فنل الثوار الملكيون التي تدل كنيته على أصولها الشعبية مثل غالوب شوبين (Galope Chopine) بيل ميشي (Pille-Miche) وخصوصاً مارش أثير (Marche-à-terre) الفلاحين المترمتين بصورة خاصة . وكاد هذا النهج أن يتحول إلى قاعدة مستقرة كإحياء الطبيعة . أخيراً نجد أن كل شيء كان يعج بالشباب ، تدفق الأسلوب ، الكلمات الملونة ، اللوحات المتفوقة الرسم ، التصريحات الساذجة أحياناً والآراء ذات الإدعاءات الفلسفية أو المعقدة .

في نفس الوقت كان بلزاك ، يفتح الرواية البوليسية فقد أعد فوشيه (Fouchet) موأمة وأرسل إلى الجاسوسة أحد عماله كورانتان المراوغ الذي سيدفع إلى إعتقال غا (gas) قائد الثوار الملكيين . وكان بلزاك يقدم بهذا للفصول التي سنهاها فيما بعد في الفندق الأحمر (l'auberge rouge) المستدعي (la requisitionnaire) قصة غمامضة (une ténébreuse affaire) عظمة ويؤس العاهرات (Splendeurs et Misères des Courtisanes) الوجه الآخر للتاريخ المعاصر...

لقد أهديت رواية الثوار الملكيون إلى تيودور دابلن

(théodore Dablin) بكلمات تنم عن الفخر ، « أهدي إلى الصديق الأول أول نتاج » وكان من الأفضل القول آخر نتاج مرحلة الشباب ، فقد ساهمت بقية المؤلفات بتقديماتها في إثراء التحفة ، تحفة المطاء . فقد دلت بألوانها المتعددة عن موهبة فذة واثقة من قوتها ومصادرهما .

- ٣ -

منهاج الملاحظة والتوثيق

لم تحقق رواية «الثوار الملكيون» التي ظهرت في شهر كانون الثاني من عام ١٨٢٩ إلا نصف نجاح، ولكنها فتحت باب الشهرة التي تكاثفت بصمت مع «فيزيولوجية الزواج» التي حققت نكاتها اللاسعة وتأملاتها الماجنة نجاحاً «صاحباً» بلزلك في الصالونات الاجتماعية.

وقد كسب له في نيسان ١٨٣٠ مجلد فصول من الحياة الخاصة. *Scémes de la vie privée* وهي سلسلة من القصص الواقظة ذات رقة مؤثرة معدة للنفوس الشابة. للفتيات كربات الأسرة لتجنبن سكب «دموع الدم» الجمهور النسائي بصورة نهائية. خصوصاً وأن «الفيزيولوجية» كانت قد أثارت فضولهن وهيجت دوامة واسعة. فانطلقت شهرة الكاتب تفرز بينهن وتدعمها الحجج القوية. وقد جاءت رواية غشاء الكآبة عام ١٨٣١ وهي مؤلف ظرفي وعبارة عن نقد واسع ولاذع للأخلاق المعاصرة بفضيحة جديدة متوجة بانتصار أدبي حقيقي.

عام ١٨٣٢ كان بلزلك الكاتب المشهور الذي تفخر سيدات القصور باستقباله في محافلهن ويعتر مدير المجلات والصحف في

إصدار رواياته في موجزاتهم وكانت الطلبات والمواضيع تنهر عليه . وقد أصبح عشيقاً للدوقة دابرا تيسس (D'Abrantes) يرتاد صالون السيدة ريكاميه (Récamier) ويلتقي فيه مع الأميرة باغراتيون (Bagration) والكونتيسه غيدوبوني منيسكونتي (Guidoboni Visconti) والكونتيسه ميرلين (Merlin) والسيدة جيراردين (Girardin) والسيدة هاملين (Hamelin) والكونتيسه أغو (Agout) وللماركيزة فيتزجليمي (Fitz James) . لقد اعتبر بلزاك أن الهالة الارستقراطية فتنة انسانية لا تقاوم ولوحظ عليه هذا الأمر بسرعة فقد كان غالباً « ما يشاهد ملازماً » للسيدة دوكاستري (de Castries) الرائعة الجمال راعية القيم الأدبية التي تحيط بها أسطورة من الحب الحزين واللاجئة الى الملذات الفكرية . وقد أثار الألم الذي يرتسم قلب الكاتب الشاب الفخور إلا أن المغامرة انتهت على شكل مزعج بعد عدة أشهر . وقد انتقم العاشق المبعد لقلبه المحروح فجدد في دوقه لانجيه (١٨٣٣) (La duchesse de Langeais) الفنج الماهر في التخطيط والفتنة المتحدقة ، والناورات الماكرة التي كانت تمارسها سيدة متهورة في ضاحية سان جيرمين (Saint Germain) ، لقد تحول بانس القلم من أجلها فتأنق ووفر حياة مترفة باذلاً جهوداً مضنية ، وانتسب من أجل ابتساماتها الى حزب هذه الجماعة « حزب الشرعية الجديد » متحدياً لوم أفضل صديقتين السيدة برني وزلمي كارو العنيف . ولا بد من التذكير أيضاً « أنه كان يعرف كيف يدير الحادثة فيجلب

اللذة ويوفر التسلية المرهقة التي كان يعتبرها أحد الأجناس الأدبية (دراسة مختلفة عن المرأة) (Autre étude de femme) ، عينة من المحادثات الفرنسية (Echantillon de Causeries françaises) ، محادثات بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل .

Conversation entre Onze heures et minuit.

لقد جعلت منه قريحته المطلقة العنان ويريق عينيه الجذاب ذات اللمعان الذهبي كما يقول تيوفيل غوتيه (Théophile Gautier) وإيمائتسه وحركاته المعبرة وخياله كلها جعلت منه محدثاً ساحراً وكان يعرف كيف يكون مستمعاً متنبهاً أيضاً .

لقد أصدر بلزك كافة مؤلفاته عام ١٨٤٣ تحت عنوان عام هو دراسة العادات (Etude des Mœurs) وضعها في فئات فصول من الحياة الخاصة ، فصول من حياة الريف ، فصول من الحياة الباريسية ، فصول من الحياة السياسية فصول من الحياة العسكرية . وقد قدم فيليكس دافان لها (Félix Davin) .

واعترف بلزك بأن صديقه قد قدم للوثائق وأهمها . وقد تحمل مسؤولية كافة الآراء الواردة في هذا البيان الذي راجعه بدقة وأعاد تصحيحه فقد جعل من نفسه مراقباً ثانياً وعميقاً «يراقب الطبيعة» ويدرسها بحذر كبير . وكان شعاره أن يرى كل شيء كل شيء ولا يغفل شيئاً . وهو يتحدى أيّاً كان بأن ينال من دقته في هذه الدراسة للتفاصيل ودقائق الأمور ويعتمد على وسائل مأخوذة من رواياته ليرفض اعتراضات الآخرين بصورة مسبقة أليس من الخطأ الاعتقاد

بوجود مثل هذه التجربة لدى مثل هذا الشاب؟ هل كان الوقت يموزه؟ كلا فلا بد لبزرك من العمل وفق حدسه.

فقد كان الفريقان يتجاهاً بصورة دائمة. البعض مثل شامفلوري (Champ fleury) ومن بعده كافة الرومنسيين الواقعيين المتسمين الى مدرسة إميل زولا (Emile Zola) هؤلاء الذين سماه أتباع بزرك كان يعتبره باحثاً عن الملفات ، ومتقصباً بجداً لا يعرف الكلال طريقه الى قلبه ، ومنقباً لا يرتوي ومرشداً. والنكات المروية عن أعماله وخطواته كثيرة لا تنضب. وقد كان يدون ملاحظاته على مفكرات صغيرة لا يتركها أبداً. وعمل على تغذية نتاجه بكافة الملاحظات التي جمعها بفضول ملتب. والبعض الآخر مثل فيلاريت شال (Philarète Chasles) دينواريتير (Desnoiresterres) كان يجد في بزرك متكهناً ، مدركاً بالحدس ، بصاراً. من كان سيثحيز للواقعي أمام سانت بوف (Sainte Beuve) كما فعل كل من تيوفيل غوتيه (Th. Gautier) وادمون غونكور (Ed. de Goncourt) خلال حفلة عشاء لدى آل مايني (Magny) العام ١٨٦٣ كان سيحصل على الجواب التالي : « هذا خيال ، هذه اختراعات ». استمعوا الى تأويل وشرح حديث لـ « ليون إميري » (Léon Emery) : « يدعون أن بزرك كان مراقباً دقيق الملاحظة . أين له الوقت الكافي لذلك ؟ أين هي ملاحظاته ؟ هل تفاخر وتباهى بنقل ما رأى ؟ ألا يتحدث دائماً عن كسبه وكأنها من نبات خياله ؟ ». وبعد تأكيد ماكس نورد (Max Nordau)

الحاسم « لم يستفد نتاجه بشيء من الملاحظة ... فالواقع لم يكن قائماً بالنسبة إليه » ، يبدو رأي أندريه بلسور (André Bellesort) موفيقاً : « هل راقب كفاءة الأمور التي يحكي عنها ... أنت لا تصدق ذلك ... لقد كان بلزك يملك من الحدس أكثر مما يملك من دقة الملاحظة » . إنها الصفة المناسبة بنظرنا لأنها تقبل بالحدود ، إلا أنها غير وافية لأنها لا تميز المراحل الزمنية . وسيأتي اليوم الذي سيركن فيه الفنان ، بعد تحرره من كل عبودية الى خصب خصب عبقريته وحدها . « إنني أحمل مجتمعاً كاملاً في أفكاري » .

وتفصي هذه الفرضية على التأكيدات المناهضة لبلزك . فليس من الضروري البحث طويلاً في بعض روايات الكوميديا الإنسانية المتتعة عشوائياً لإبراز عادات المؤلف ، والكلمة ، والموضوع . « تتوفر مادة واسعة ، وهي معروضة على هؤلاء الذين يودون مراقبة أو رسم مختلف المناطق الاجتماعية ... » (دراسة مختلفة عن المرأة) . « ترتبط أحداث الحياة الإنسانية العامة أو الخاصة بصورة حميمة بالهندسة . حتى أنه يمكن لأغلب المراقبين إعادة تشييد الأمم والأفراد في أصدق عاداتهم مستندين الى آثار أبنيتهم العامة ومعتمدين على دراسة بقايا منازلهم » . (البحث عن المطلق) . « لا بد لمنع النقاد من الإسراع بالحكم بالطيش والدمغ به من الإشارة الى ... » « يلقي الباحث نفس السخرية في كافة مراحل المجتمع ... ولعل الباحث يفهم الحقيقة حين يقارن عمق الدعاية الراجحة بكل مراتبها انطلاقاً من

السوتي في باريس وصولاً الى الاقطاعي ... وأورد هذه الملاحظة لعل البعض يفهم ...» إن هذه الجمل والعبارات مأخوذة من نفس الفقرة. (دوقه لانجيه). لقد وضع بلزاك في (السيدة فيرمياني) وسط الاحداث «عجوزاً» يتسمي إلى فئة المراقبين الباحثين. ويمكننا أن نكرر هذه التجربة في (الكوميديا الانسانية فنجد أن بلزاك يتسمي الى نفس هذه الفئة. لنعد عامين الى الوراء الى العام ١٨٣٠ ، الى بداية رحلته في التأليف، ولتصفح مجموعة) (التساج المتنوع (Euvres diverses). هل يريد أن يستريح بعد

عناء عمل طويل ومتواصل استمر عدة ساعات؟ «إنني انصرف» حينذاك «الى التسلية التي تمنحني اياها الطبيعة في الخارج» و«توغل نظراتي يمنة ويسرة لدى جيراني. وأبدأ بالمراقبة...» هكذا تستهل رواية (البطال والجتهد l'oisif et le travailleur وقبل أن ننتهي نبرز إحدى ملاحظات فيليكس دافان بأنه يعطي «الحياة لملاحظات لافاتيه (Lavater) بتطبيقها». ونقتنع بذلك عند قراءة (الفيزيولوجية الدوائية) (la physiologie gastronomique)

(. فهو يبدأ هذه الرواية بإيراد ملاحظات حول هذا العلم المفيد. والعميق. واللذيذ، الذي اكتشفه لافاتيه وغال Gall». فحين يطبق نظرياتها للتمييز بين مختلف أنواع الدواقة ومباشرة «التفتيش المتروي عن سيئاتهم وهيتهم وحركاتهم رغبة منه في تحليل كل ملاحظتهم» يعلن

بلزك وقد أضاف الى عمره عشر سنوات «منذ أربعين سنة وأنا أراقب الآكلين» وقد وصف هذا في (الفندق الأحمر). إنه يراقب أينما كان ، في الطرق . في العربة ، في الكوخ ، في الصالونات وفي الكنائس ، خلال الليل والنهار فهو يريد كشف الاسرار المخبئة وراء ستائر المنازل . ويعدد لنا كافة الاسرار ويأتمتنا عليها. فهو يلاحظ كل ما يفلت من النظرات اللامالية والعيون اللامكترثة. ويعرض علينا نتائج تقصيائه في (البقال l'épicier) و(السيدة توتانديو Madame Toutendieu) و(غابة بولونيا) (Le bois de Boulogne) (من حياة القصر) (de la vie de château) ، (الاستشارة) (la Consultation) (الشهباء) (La Grisette) ، (يوم الأحد) (Le Dimanche) ، (حياة في العالم الكبير) (Une vie di grand monde) ، (الساعات الحية) (Les Horloges Vivantes) ، الخ .. وهذه الأسماء موحية بجد ذاتها .. فهي تنقلنا في كافة ادوائر مجتمع عام ١٨٣٠ . وهي كلها من الأشياء المرثية .

وكان يعلق عليها أهمية تساوي تلك التي كان يدعي إكتسابها منها . ويأخذ في عقد الزواج على بول ما ينز فيل (Paul de Mannerville) عدم قدرته على «اكتشاف في موقف وسحنة وأقوال وتصرفات «خطيبته» الظواهر التي تدل على أكمة النقائص والعيوب التي تدخل في سائها ، ككل كائن انساني» ، وكان يتوجب لذلك على بول «أن يملك ليس فقط علوم لافاتيه وغال بل أن يطلع أيضاً

على علم بلا مذاهب مجمعة ، علم المراقب الفردي الذي يتطلب معرفة شبه شاملة . ثم يكشف ماذا كان بوسع إنسان حاذق باستعمال مبيض التحليل أن يستشف لدى ناتالي . الا أن ناتالي شخصية خيالية ، وهي تدوين بخطوطها البيانية المميزة الى استقصاء الكاتب الذي يدعي كشف أعماق النفس ، وانعكاساتها على قسما ت الوجه ومنحنيات الطيف وبنيته . ونستدل على هذا من الملاحظة القائلة أن أكثر المراقبين تمسأً يمكنه أن يتنبأ . ويلاحظ إشارات أساسية حيث لا يلاحظ الآخرون وجود شيء خارق . وتضم (سارازين) (Sarazine) و (الفندق الأحمر ملاحظات مشابهة .

هل من يعقل القول أن هذه التأكيدات المكررة ، التي أوردنا منها بعض العينات العشوائية ، تهدف إلى الاستخفاف بالقارئ فقط ؟ ان بلزك يستأثر به اهتمام واحد الا وهو أن يرى كل شيء ، وأن يسجله لوصف الطبيعة والأشياء والناس كل هذا بهدف اظهار أسرار حياة ثانية أكثر سرية .

والآن لننظر إليه كيف يعيش . لقد كان يدعي أن قوة ملاحظته استوداد طبيعي دعمته التجربة « النفوس المهملة والفقراء هم وحدهم الذين يجيدون المراقبة .. أنهم يعرفون كيف يراقبون لأن كافة الأمور تصدمهم » المراقبة وليدة المعاناة . فالذاكرة لا تسجل جيداً إلا الألم . « ويتعلق هذا السر الذي أدلى به إلى السيدة هانسكا (١٨٣٣) بتدرجه في العالم حيث شعر بالمهانة . فهو لم يكن يتردد في اعتبار حياته المستمرة » « سر ما يسمونه خطأ موهبتي » . وكان يشكو من

الإهمال الروحي الذي عانى منه في طفولته بسبب والدته. وبارك هذه اللامبالاة التي عودته منذ الصغر على إيجاد لذة في الوحدة ، و «مراقبة الحشرات» و «النظر إلى نجمة بشغف فضولي» يردّه الى «حزنه المبكر» (الزنبق في الوادي). أليس بوسعنا أن نأخذ حرفياً. بهذا الاسترجاع لذكريات الطفولة: «من لم يتبع في حياته خطوات نملة، من لم يملأ بالقش الفتحة الوحيدة التي تنفس من خلالها البزاقة الشقراء؟ من لم يراقب غنج أنسة خافتة الصوت؟ من لم يتطلع طويلاً ويتلذذ بروية آثار الشمس والأمطار على سقف من القرميد الأحمر؟ من لم يتأمل نقط الندى وأوراق الأزهار بتقاطع كؤوسها المختلفة؟» (غشاء الكآبة). مثل رفائيل فالتين (Raphaël Valentin) وفليكس فاندنيس (Félix de Vandenesse) يتأقلم الطفل الملعون بسرعة منذ سنواته الأولى مع ظواهر الطبيعة وتقلب السماء ويراقب كل شيء «ابتداءً من قشة العشب حتى النجوم المتسكعة» (الطفل الملعون). كان بلزاك يترجم عبر كل شخصية ويعبر عن مظهر عميق من سماته «حياة الطفولة ، الحياة الكسولة» ويضيف «الحياة المتوحشة» فنكاد نظن أنه كان يفكر بقراءاته كمراهق في (القراءات التقوية) هذه القراءات التي غذت أحلامه. وقد وحد أجواء «الغابات البدائية» في (آخر موهيكان) (Le dernier des Mohicans) لفنيمور كوبر (Fenimore Cooper).

لقد أمضى بلزاك حياته باثراء ذاكرته بالملاحظات. ومن الخطأ الاعتقاد أنه كان ينكب طوال الليل على عمله ليقضي ساعات

النهار نائماً متعباً. صحيح أنه كان يجتاز مراحل من العمل المرهق وتتابع فورات من الرغبة في الوحدة المطلقة فيعتزل عالم الأحياء ويتفرغ لأشباح خياله يضمها إلى مؤلفاته ويلحقها بها. إلا أنه فيما عدا ذلك كان يسعد بقاء أصدقائه ويرتاح أمام طبق شهوي وينطلق على سجيته في الأحاديث ويفرح بالتجوال عبر العالم. لتذكر فقط نزواته التي لا تنتهي عبر باريس برفقة ليون غوزلان (Léon Gozlan) بحثاً عن إسم يصف إحدى شخصياته ليلقاه في لافتة محل ، إسم مرصود، معد له كاسم ماركا (Marcas). وهو يشير في كل لحظة إلى سحنة ونماذج المارة الذين تلمحهم عينه المترقبة في الشوارع والطرق. لنفكر بالأوساط المتباينة المتنوعة التي التقاها في رحلاته من باريس إلى روما، إلى ثورين ، إلى ميلانو، إلى البندقية، إلى سان يترسبورغ إلى فيينا، إلى برلين الخ.. لقد أخذ بلزك شخصيات الأجانب من رجال ونساء، والتي وضعها في الكوميديا الانسانية من الطبيعة، أضف أنه كان يتردد على السفارات ويقيم علاقات مع عدة جاليات أجنبية في باريس.

لقد تحول النهج الذي استلهمه في رواية «الثوار الملكيون» وأصبح قاعدته الأساسية في التأليف فبات يحرص على زيارة المناطق التي يريد إدارة أحداث قصته فيها إن لم يكن قد زارها وتفحصها بدقة من قبل. وهذا ما جرى «لألنسون» (Alençon) في (الفتاة العانس) وفي (مجلس القدامى)، و«لبايو» (Bayeux) في (عائلة مزدوجة) وفي (الزوجة المهجورة) (femme abandonnée)

ولد «غيراند» (Guérande) في (بياتريكس) ولد «كروازيك» في (Un drame au bord de la mer (مأساة على ضفاف البحر) كذلك وصف «تور» و«تورين» في (الزنبق في الوادي) و(جعبة القنابل) و(كاهن تور) و(إمرأة الثلاثين) و«سومور» في (أوجيني غراندي) و«انجوليم» في (الأوهام الضائعة)، «اسودون» في (معركة المياه) «ليموج» في (كاهن القرية) «سانسير» في (ربة فن المقاطعة) «نيمور» في اورسول ميرويه «بزنسون» في (ألبير سافاروس) «فوريب» (Voreppe) في (طبيب الريف)... وقد بين بعض الباحثات والمنقبين وعلماء الآثار مثل كونتاد (Contade) في ألسون (Alençon) وإتيان أوبري (Etienne Aubrée) في فوجير (Fougères)، موريس سرفال (Maurice Serval) وألبير أرو (Albert Arrault) و.ج.أ. ويلن. (J.E. Weelen) في تور (Tours) وتورين (Touraine) فراي فورنييه (Fray-Fournier) في ليموج. وتأكدوا من صحة ودقة الوصف الوارد في هذه القصص، وصف الموقع والأبنية والمنازل والطرق، فوجدوا أنه غالباً ما جاء كاملاً ومعبراً ورأوا أنه يعطي الشعور بالحقبة وإن ابتعد به الخيال عن الواقع. إن مؤلفات بلزاك هي ألبوم من الرسوم، ألبوم جمعت فيه المناظر الحقيقية التي سلبت عليه ليه وتلونت ببعض من نفسه المرتعشة. لم يكن ليكنني بتسجيل رواه وآثارها على حساسيته بل كان يستوقف المارة يسألهم عن تفاصيل دقيقة ليضع مخططه.

لم يكن يدرس فقط المناطق بل كان يتروّد بالمعلومات حول العصور التاريخية ويتوثق بالمستندات العلمية حول القضايا العلمية التي يود معالجتها. كان يستعلم ويستخبر ويستجوب الناس الذين عاشوا في ظل النظام القديم كصديقه دو فيله (de Villers) رئيس دير كور (Cour) السابق ، والمسؤول عن كنيسة الكونت أرتوا (Comte d'Aratois) الخاصة ، والسيدة السيدة برني (Mme de Berny) وصيفة الملكة ماري أنطوانيت ، أو هؤلاء الذين عاشوا في ظل الامبراطورية كالدوقة أبرنتيس (duchesse d'Abrantès) الخ ...

و حين رغب في عرض النظريات الموسيقية في ماسيميلادوني (Massimila Doni) ، عرف وهو هاوي الموسيقى أن ذوقه لا يكفي فطلب من موسيقي ألماني عجوز ان يعزف له موس (Moise) لروسيني (Rossini) مراراً وتكراراً ليستوضحه أموراً غابت عنه فيتمكن بهذه الطريقة أن يورد في روايته تحليلاً طويلاً ودقيقاً. هذه الأوبرا. وحين أحب وصف أجواء السجن و إبراز عادات المجرمين ورجال الأمن ونقل أحاديثهم لم يكتب بمذكرات فيدوك (Mémoires de Vidocq) بل اتصل مباشرة بفيدوك المحكوم بالأشغال الشاقة الذي تحول الى مدير للأمن وأجرى معه محادثات وأخذ منها الكثير من المعلومات واستنتج منها الكثير من الانطباعات التي سيستغلها في الأب غوريو (Père Goriot) حيث يتسم جاك كولين (Jacques Colin) الملقب بفوترين

(Vautrin) . بشخصية نموذجه القوية والفريدة كما يقدمها لنا
ليون غوزلان (Léon Gozlan) في كتابه (بلزاك في
منزله) (Balzac chez lui) ...

أكثر الروائي من لقاء المحكوم السابق بالأشغال الشاقة ودعاه
الى طاولته في الجاردي (les Jardies) واستمع اليه
وهو ينصحه بالاستناد الى «الواقع» ويحكى مغامراته ويصف حياة
السجناء الكريمة، ليعود فرايبش (Farrabesche) ويرويها
بدوره في كاهن القرية (le Curé de Village) . كذلك
ستشكل الأشغال الشاقة والسجون والتحقيقات والقوانين الجزائية
الأجواء الفظيعة والكثيية والشريرة التي تحيط برواية «تجسد قوترين
الأفيرة» (La dernière incarnation de Vautrin) (الجزء
الرابع من بهاء ويؤس العاهرات) (Splendeurs et
misères des courtisanes) .

ويعطينا أرغة (لغة العامة) طبقة اللصوص، من مجرمين وسارقين،
كل نكهته وصوره الخشنة والمبتكرة والقاسية. فبيبي لوبين
(Bibi Lupin) رئيس قوات الأمن والشرطي لوشار
(Louchard) وكونتونسون (Contenson) وبيراد
(Peyrade) وكورانتيان (Corentin) هي نماذج متفاوتة
الدقة عن رئيس فيدوك (Vidocq) .

أتاح تطبيق نفس المنهج الاستخباري لبلزاك وصف وقائع

عسكرية ، سواء بصورة منعزلة الفردينغو (El Verdugo) الوداع
(Adieu) ، أو بإدماجها في روايات وآل مارانا
(Les Marana) وطبيب الريف (le Médecin de)
(Campagne) وقضية قاتمة ، (Une ténébreuse
affaire

كان بلزك يلتقي أثناء زيارته لعائلة كارو (Carraud)
حيث الزوج هو أستاذ في مدرسة سان سير
(Saint-Cyr) - بضباط الجيوش الامبراطورية السابقين
كالضابط بريولا (Périolas) الذي كان يروي لهم مغامراته ،
والجنرال بومرول (Pomereul) الذي كان يحكي لهم
فكاهاته .

وكان بلزك يدون كل هذه الأمور ويسجل التفاصيل المؤثرة
والمذهلة . ونحن نجد آثارها من أفكار ومواضيع ، ومقتطفات ، في
ألبومه . وهناك حوادث تدل بصورة أفضل على السعادة التي كانت
تمتلكه وهو يعرض عن النقص في رواه الشخصية . ففي عام ١٨٣٢
أقام بعض الوقت لدى آل كارو (les Carraud)
القاطنين في مصنع بارود انغوليم (Angoulême) حيث
كان الأصدقاء يأتون لرؤية الكاتب الشهير ، والاستماع اليه وكان أحد
هؤلاء المفوض غران بزانسون (Grand Besançon)
قد قام برحلات كثيرة زار خلالها بلاد الهند وماليزيا وقد استجوبه
بلزك بنهم وعرف كيف يستمد منه عناصر مقال طويل نشر في مجلة

باريس (la Revue de Paris) تحت عنوان «رحلة من باريس إلى جاوة (Voyage de Paris à Java) مقال باهر بروحه ، مليء بالقرينة ، رغم أن رسم المواقع وعادات السكان المحليين تتسم بالألوان الحقيقية التي تذكرنا بالغرابة الرومنسية والفكرة التي يكونها أناس عام ١٨٣٠ عن هذه الجزر البعيدة والرائعة. كذلك لم يرَ بلزك أبداً الزقاق البحري (Fiord) ولكنه وصفه في «سيرافيتا - ١٨٣٥» (Séraphita 1835) بدقة رضي عنها النرويجيون.

الا يمكننا الاعتقاد أنه فكر منذ عام ١٨٣٠ برواية قصة في أجواء شمالية حين اقترح ذلك على الكونتيسة أولترومان (Contesse d'Oultremont.) في مقاله «دُرَجَةُ الآداب» : «يمكنني الإشارة عليك بدراسة ألوان لبونيا المحلية لتصوري لنا قمة جبلية بثلوجها الطبيعية وفجراً شاملياً. لم يسبق لك أن رأيت ، والرنه (حيوان لبون) والحسكة ، وزيت الحوت وآفاق الثلج والدبيب البيضاء والخراز..»

ولا يمكننا أن نذكر كل الدلائل على العناية التي جمع بها هذه الوثائق حتى بالنسبة للأمور الصغيرة. فنحن نجد أن بلزك يدرس العلوم بنفسه كما فعل بالنسبة للكيمياء في «البحث عن المطلق» (La recherche de l'absolu) والنظريات السويدية في سيرافيتا (Séraphita) والنظريات المغنطيسية والمسحورية في أورسول ميرويه (Ursule Mirouët) وغيرها قبل أن يجعل

أبطاله يناقشونها أو يعيشونها. وهو غالباً لا يستطيع أن يمنع نفسه من إبداء رأيه. لقد كان يحصل على معلوماته من أصحاب الاختصاص ويجهد لاستيعاب المادة العلمية.

تدور القضية التي طرحها النقّاد بعنف حول القيمة التاريخية للكوميديا الانسانية (la Comédie Humaine) ، فإذا كان الجميع متفقاً على اعتبار هذا التاج الأدبي لوحة ، حية جميلة ، فإن بعض المفسرين يتساءلون عن مدى دقته وتوافقه مع الواقع . وإذا كان هذا المؤلف يحكي كما يدعي بلزك « قصة المجتمع العامل » ، وقصة فرنسا القرن التاسع عشر الكاملة ، ويشكل لوحة المجتمع المأخوذة عن الواقع بكل حسناته وسيئاته ، فإن برونتييه (Brunetière) لا يتردد في الموافقة . كما لا يتأخر تين (Taine) وألبير سورييل (Albert Sorel) عن اعتبار بلزك مؤرخ عصره . فالكوميديا الانسانية (la Comédie humaine) تورد كل تطورات الحياة السياسية والاجتماعية من عام ١٧٨٩ إلى عام ١٨٤٨ : الثورة الملكية ، والأضطرابات الثورية . والأبهة الامبراطورية .. غباوة وعناد الطبقة الارستقراطية بعد عودة الملكية . لقد راقب بلزك نشوء القوى المالية ، وصعود البورجوازية ، وانتهازية بعض رجال السياسة وتزايد أهمية رجال الأعمال وانهار طبقة النبلاء المتخثرة في ندمها العقيم ، وانتصار التطلعات الديمقراطية وتوثب طبقة رجال الدين الاجتماعي بقيادة لامنيه (Laménais) ومشاريع السيمونية (بيع وشراء

الأشياء الروحية) الجريئة، والصدمات التي هزت كافة الطبقات الاجتماعية وبدلت مظاهرها في عهد ثورة تموز وفي ظل حكم لويس فيليب (Louis Philippe) وسردها بدقة ووصفها في الكوميديا الانسانية (La Comédie humaine) ودرس أسبابها وآثارها العامة والخاصة .

كذلك اهتم بلزك بالرجال الذين صنعوا الأحداث فذكر عدداً كبيراً من أسماء هؤلاء الذين برزوا لدورهم السياسي أو لتفهمهم للحاجات الآتية أو لتفوذهم العلمي أو الفلسفي أو الأدبي أو الفني . كذلك أشار إلى بعضهم تحت أسماء مستعارة ، وعلينا الا نتوقف عند عبثية محاولات تحديد هؤلاء الأشخاص فهي ولا شك تتيح ترسيخ حكم بلزك على الفئات الاجتماعية التي يمتلكها هؤلاء الأشخاص . لتتوقف عند وصف الطبقة الأرستقراطية في فوبور سان جيرمان (Faubourg Saint Germain) التي ما زالت صحتها موضع نقاش حتى اليوم . فقد كان سانت بوف (Sainte Beuve) يتهجم على بلزك بعنف « هناك بعض العبقرية وبعض الاختراع في مراقبة العادات - بعض العادات - وان كان لا يعترض على قدرته في الوصف ... إلا ان العالم مخادع في الوقت الذي يأخذ غوستاف لانسون (Gustave Lanson) على رجال المجتمع وخصوصاً: نسائه أناقتهم الزائفة ، نراه يحصر السجال حولهم ويأخذ على رسام التاريخ عدم دقته في وصفهم . ألم يعتبر تورو دانجان (Thureau Dangin) بلزك (Balzac) في كلمة

الدخول الى مجتمع اللغويين الفرنسي عام ١٨٩٣ 1893 «أكبر
ثلاث للطبقات الحاكمة»؟ ورآه عاجزاً عن «خلق نموذج صاف
لسيدة أو فنانة» .

ويمكننا توسيع السجال حول المجتمع الأرسقراطي ، ومتابعته
ومقارنته بتاج الآخرين حتى الوصول الى الرومنسيين المعاصرين :
بورجيه (Bourget) ، مارسيل بروسق
(Marcel Proust) إميل بومسان
(Emile Baumaun) ، السيد كلود سيلف
(Mme Claude Silve) وغيرهم من الكتاب غير
تهمين بالقدح والشهير لانتمائهم بالولادة الى هذه الطبقة الاجتماعية ،
يلوؤرخين والمعلقين على بداية القرن العشرين .. فيمكننا أن ننصب
أمام مجلس القدامى (Cabinet des Antiques) وبياتريكس
(Béatrix) ، ودوقية لانجيه
(La Duchesse de Langeais) والزنبق في الوادي
(Le Lys dans la vallée) الخ .. تعب أمامها
المهاجر (L'Emigré) ، المحطة (l'Etape) الفارسة
(l'Eaugère) وغيرها من روايات بول بورجيه
(Paul Bourget) . لنصل الى النتيجة القائلة : رغم
تفكك الطبقة البورجوازية كان من الممكن أن نلتقي على الأقل قبل
عام ١٩٤٠ - في بعض الأحياء الباريسية أو المناطق الريفية . ببعض
الخلايا الاجتماعية التي حافظت على مجموعة من العادات والتقاليد

المتأصلة بالأخلاق والمؤثرة على سير الأمور والأشخاص المطابقة لما وصفه بلزاك (Balzac) في عهد عودة الملكية إلى الحكم وفي ظل لويس فيليب (Louis Philippe) . وقد قال ألبير كاهويه (Albert Cahuet) عام ١٩٢٠ عن الفارسة (l'Eaugère) بأنها أجواء بالية لم تتأثر بتغيرات عصرنا . فقد كانت تغمس بالعظمة الغافية المتطلعة إلى الماضي ، القصور العتيقة في فوبور سان جيرمان (Faubourg Saint Germain) التي تحكمها صلابة المبادئ الجامدة والأعراف البالية . لقد كانت الجدران والزينة وأبهة المراسيم تهذب العقول التي ما كانت لتخلو من بعض الطلاقة الوقحة والجرأة والمغلقة باللفظ المعطر . ونستتج أن خلفاء بلزاك قد استشفوا في عادات وصفات الأعراب نفس الميزات والعيوب التي لاحظها هو . لقد قصدنا أن نستهلك هذا الفصل بوصف الكاتب الذي بدأ تحقيق الشهرة وهو يدخل إلى مواقع الطبقات الفنية الباريسية ، ودليلنا على ذلك أنه يتحدث عن هؤلاء الذين رأهم وسمعهم وأن رسومه ولوحاته مأخوذة عن نماذج حية . ونكاد نقول أن المتهجمين على هذا التشابه يأخذون ثأر أجدادهم .

لقد بدأ بعض المؤرخين والنقاد والمتخصصين بالتحقق من قيمة الكوميديا الانسانية التاريخية . ونذكر من بينهم لونوتر (Le Nôtre) في الثورة الملكية النورمندية في عهد الامبراطورية

La chouannerie Normande au temps de l'empire

وهذا فيما مضى المصاعب التي تعرضت لها السيدة شان تري
(Le chanterie) وابنتها الوجه الثاني للتاريخ المعاصر (l'envers de
l'histoire contemporaine) مازك بلانشار (Marc Blanchard) في
«الريف وسكانه في مؤلفات بلزك»

La Campagne et ses habitants dans l'œuvre de Balzac ,
فيما مضى الوجوه الاجتماعية والنظريات الاقتصادية الزراعية الواردة
في زنبق الوادي (le Lys dans la vallée) طبيب
الريف (Le Médecin de Campagne) ،
كاهن القرية (le curé de Village) ،
الفلاحون (Les paysans)

وهناك دراسات ومقالات عديدة تتعلق بالعالم القضائي
(le Monde judiciaire) ، البوليس ورجال الشرطة ، la police et ،
les policiers ، الطب والأطباء (la Médecine et les médecins)
الدين والكهنة في الكوميديا الانسانية (la religion et les prêtres)
dans la Comédie humaine ، الموسيقى والموسيقيون (la Musique
et les musiciens) والفنانون (Les Arts et les Artistes) ،
المالية وأصحاب المصارف (la Finance et les banquiers) الخ ..
وتقبل استنتاجاتهم بصورة عامة وتقول بدقة وصف الأشخاص والمهن
والرسوم المتعددة . وقد عمد موسى لو ياونك (Moise Le Yaouanc)
إلى تجاوز الدراسات الجزئية التي تناول بلزك والأطباء والطبابة والعلم

ووصف في أطروحته الواسعة وصف أمراض إنسانية بلزك (١٩٥٩) ووصف الأمراض والأطباء وتشخيص الأمراض والعلاج والنظريات الغريبة في الكوميديا الانسانية (la Comédie humaine) ، ليستنتج أن أوجاع عالم بلزك مطابقة في غالبيتها لأمراض وردت في الجداول الطبية القديمة . ويمكننا الاستدلال ، في هذه الحالات المرضية وإدراجها في الدراما الرومنسية على مدى اطلاع بلزك ، والحكم على طبيعة وأصالة فنه الخلاق . وتخبّرنا أطروحة جان هرفيه دونيه (Jean Hervé Donnée ، عن الوقائع الاقتصادية والاجتماعية في الكوميديا الانسانية (١٩٦١) les réalités économiques et sociales dans la comédie humaine .)

على العناية التي كان بلزك يولها لاقامة لوحة واقعية لطبقات عصره . اكتفى بلزك باستخدام تجاربه وملاحظاته حين رغب في وصف صحافة عصره وتقييمها ورسم عادات الصحفيين البارسيين . في حكاية رجل ريفي شهير في باريس . (القسم الثاني من الأوهام الضائعة) (١٨٣٩) . وتصرخ هذه اللوحات وهذه الصور بالحقيقة ، وتضج «بالدقة المفزعة» كما كتب يقول للسيدة هانسكا . «ليست كتاباً بل عملاً كبيراً شجاعاً خصوصاً وأن صياح الصحافة ما زال مسموعاً» . كان بلزك يعرف تماماً الموضوع الذي يتحدث عنه فقد ساهم - كما سبق أن قلنا - في تحرير عدة جرائد ابتداء من عام ١٨٣٠ ، كما حاول تأسيس عدد منها وعانى من تهجم نقابة

الأدباء، الظالم والخبيث عليه، هذا التهجم الناتج عن الغيرة. وقد انتقم منهم ببقائه أميناً للحقيقة. ونحن نشهد نقداً لاذعاً في «الأوهام الضائعة» وفي إحدى وقائع الصحافة الصادرة في المجلة الباريسية في ١٥ آب ١٨٤٠ ثم في دراسة الصحافة الباريسية. وقد وجد المؤرخون في شخصيات وحوادث الرواية السمات الحقيقية للعادات الصحفية في ذلك العصر وتحققوا منها. فالبطل الأساسي لوسيان شاردون دو رومبيره (Lucien Chardon de Rubempré) يقلد وينسخ أسلوب سانت يوف (Sainte Beuve) وجول جانين (Jules Janin) وبعض مغامرات البيري سوكون (Alberie Second). ويؤخذ من اعترافات بلزاك نفسه أن لوستو الروائي (Losteau) هو ساندو (Sandeau) كذلك نجد بعضاً من غوزلان (Gozlan) في ناتان (Nathan)، وبعضاً من جيراردين (Girardin) في فينو (Finot) وروكيلان (Roqueplan) في بالفرين (Palférine) (أمير البوهيمية) (Un prince de la bohème). وبدا هذا الشبه على صلابة القاعدة التاريخية. ونكتشف كذلك في بلونديه (Blondet) وفينيون (Vignon) الناقدتين في «السجال» (Debats)، بعضاً من فيليسيان فرنون (Felicien Vernon) المعلق الحقود ومقاوم الاكليروس، وهكتور ميرلين (Hector Merlin) رئيس الصحافة الملكية، والرسام الكاريكاتوري (بكسيو Bixiou). نكتشف من خلالهم جميعاً الخفايا المخجلة والمناورات العريضة والمساومة والابتزاز والانتقام الشخصي ونفحات الغضب وانعدام الاقتناع الذي

تميزت به صحافة عهد الملكية والملكية البورجوازية ، بعد أن تحولت الى تجارة . فقد كان لمكتب الجريدة وقاعات التحرير ومستودع الناشر والمكتبي كواليسها التي تساوم فيها الصفقات الغير شريفة والمقززة أحياناً . ويقول لنا بلونديه (Blondet) « لم تعد رسالة الصحافة الاعلام وإيضاح الأمور بل باتت مدح الآراء . انها دكان تباع فيه للجمهور الكلمات التي يود سماعها . فالفساد سائد ومنتشر بين المديرين وبين الكتاب المغمورين . ومكاتب الجريدة هي « مواخير الفكر حيث تباع كافة الأنواع الأدبية . ولكن ماذا يمكن القول عن النقد ؟ ان المدح والاستكار يقيم - بالقسطاس ، والشهرة تصنع فيها وتهدم وفق أوراق البنكنوت والزيادات . « فنحن نجار الكلمات ونمتاش من تجارتنا ... والمقالات المقرؤة اليوم المنسية غداً لا تساوي بنظري الا ما يدفع مقابلها .. » هذا ما يقوله فيليسيان فرنون (Felicien Vernon) أحد مشجعي الفرقة الذي يشكو للجميع من الحياة الكريهة التي يجيهاها بزواجه من طاهية بدينة . وهذا هو المبدأ الذي يبرر هذا المسلك الشائن : « كل شيء ثنائي في ميدان الفكر . وللآراء وجهان ، جانوس هو اسطورة الوهم ورمز العبقرية » . هذا هو المبدأ الذي يعمل بلونديه (Blandet) الى لوسيان رويومبريه (Lucien Rubempré) . بكلمة اخرى يعتبر من دلائل الموهبة قدرة الكاتب على نقض الحكم الذي أدلى به اليوم في الغد ، أو كتابة تقريرين متناقضين الواحد تلو الآخر . أما بلزك فقد كان يغالي في تقدير الصحافة ويريدنا أن نصبح كهنوتاً مقدساً ومحترماً .

وهكذا نصب أمام هذه الفرقة من البوهيميين والمتذبذبين الندوة الأدبية التي تضم ميشال كريستيان (Michel Chrestien) وجوزيف بريدو (Joseph Bridau) ودانيال دارتيز (Daniel d'Arthez) وأصدقائه. وهم فاضلون لا يقبلون الرشوة ويعتبرون أن العمل والاستقامة هما الطريقتان الوحيدتان إلى النجاح والشهرة الحقيقية. وتتطلب صلابتهم إرادة قوية والترفع عن المال والابتعاد عن النفاق. ولم يسبق لفرن بلزك أن عرف كيف تمكن من إعطاء الشعور بالحقيقة إلى هذا الحد. فهو بتهمته العنيف على الكتاب الحقيرين الذي يبيعون موهبتهم مثل لوستو (Lousteau) إنما أشار إلى الذهن الثاقب، والأداة اللاذعة التي يديرها المزاج الفرنسي بخفة. وتشكل الأوهام الضائعة هي أيضاً طمحة من تاريخ الأدب تدرس فيها الأنواع الأدبية والأفكار السائدة بعد عودة الملكية. ونجد فيها الصيغ المثيرة التي تناول الأحكام المطلقة بصلابة والمصاغة بتحكم. إن هذه الدراسة حول الصحافة تساوي فصلاً من المذكرات (Mémoires) فصلاً مكتوباً بوعي وصراحة وتأثر وحمية - فهذه ميزات بلزك المؤرخ.

لقد تبين بلزك وتنبأ بالدور الكبير الذي ستلعبه الصحافة وتأثيرها في كافة الميادين. «ستكون الصحافة هوس القرن التاسع عشر، وكل فرد حر في التحقق من دقة التعبير بإجراء المقارنة بين وضع الصحافة الحالي واحترام الأهواء والأحقاد والتنافس الذي وصفه لنا بلزك، وللجميع الحق في الحكم وإبداء رأيهم».

الملاحظة والحدس هما القطبان الذين تتركز فيهما فضيلة بلزاق وقدورته الخلاقة. فقد خزن في عقله جمعاً كبيراً لا متناهياً من الأفكار والذكريات. وكان الخيال يأخذه حين يغرف من هذه الوفرة من الفنون فتحقق معجزة الخلق الحقيقي. وقد وصفها بنفسه في مقدمة غشاء الكآبة. «يتعرض الشعراء أو الكتاب الفلاسفة إلى ظاهرة معنوية عجيبة، لا تقبل التفسير يعجز العلم عن تبريرها، أنها نوع من الرؤية الإضافية التي تمكنهم من إستنباط الحقيقة في كافة الأوضاع الممكنة أي أنها توفر لهم فرصة الانتقال إلى حيث يجب وحيث يجبوا أن يكونوا. إنهم يكتشفون الحقيقة بالقياس، أو أنهم يرون الشيء الذي يودون وصفه سواء لأنه يأتي إليهم أو انهم يذهبون بأنفسهم إليه ...»

هل يملك الناس القدرة على الإتيان بالعالم إليهم، أم أ عقلهم هو تعويذة يبطلون بها قوانين الفضاء والزمن؟ .. وتنبع .
تصريحات أخرى الاعتقاد بأن بلزاق يملك القدرات النفسانية الخا التي توفر له رؤية الحدس فقد كان يعتقد نفسه عرافاً مستبصراً .
وصف ديدرو (Diderot) هذه «الميزة الروحية الخاصة السر التي لا تقبل التحديد والتي لا يمكن بدلونها تحقيق أي أمر عظيم أو جميل «إنها دليل» العبقرية لدى الشعراء والفلاسفة والخطباء.. وهو ليجهل إلى أي حاسة فكرية أوجسدية يمكن إسنادها. فلا بد من إرفاقها وربطها «بالفكر الملاحظ». الذي يمارس دون جهد أو تركيز، فهو لا ينظر أبداً.. ولكنه يرى.. هو غير حاضر لكنه تأثر

بكافة الحواس ، فنحن نملك حساً جديداً لا يملكه الآخرون ، نوعاً من الفكر المتين» .

«أصبحت الملاحظة لدي حدساً ، وهي تتوغل في الروح دون أن تهمل الجسد ، أو أنها على الأصح تلتقط التفاصيل الخارجية وتذهب بها فوراً بعيداً : إنها تعطيني القدرة على عيش حياة الشخص الذي تقع وتمارس عليه باتاحتها لي فرصة الحلول مكانه» .

يفرس بلزك المتمرس كعراق في تأويل الظواهر والإشارات ، نظراته في أعماق الاشباح التي تلاحقه . ويسر قلبها . أفليست كائنات حية بالنسبة إليه ؟ انه يتناول هذا الكائن الذي بات إنسانياً ، ويكشف عن أسراره ، وماضيه ومستقبله وأفكاره المخزية وأهوائه المختبئة . ويستبق ترتيبات القدر البطيء العاجز عن اللحاق به . ويركض أمام الملاحظة بحث من سير خطواته خصبه «المائل» و«الضروري» . لقد حان الوقت وبات حدسه العبقري قادراً وحده على تحريك كافة الوقائع الأرضية والروحية واستغلالها في خدمة فنه .

فتراكض الظلال ، رقيقة سهراته المحببة ، وتتوافد وتتسارع أمام عيونه الهادية .. فيتطلع وينظر إليها وهي تتحرك وتراقص وتختلط فيما بينها وتعيش وتتزوج ، إنه محفل السبت الليلي . فلا يقدم لنا نسخة عما يجري أو يصور لنا أمد الناس الذين يمكن التعرف الى صورتهم في المرآة السحرية . إنه يعرض لنا أبطال وشخصيات الكوميديا الانسانية ، إنه الأب غوريو (Goriot) ، انه الأب غرانديه (Grandet) انه السيد التازار كلايس (Balthasar Claës) ، إنها الأم سيبو (Cibot) ،

إنها فيرونيك غرسلان (Veronique Graslin) إنها ديسان دو موفربتيوز (Diane de Maufrigneuse) وآل مارساي (Marsay) وتيليه (Tillet) وتراي (Trailles) ، وانها الفتاة ذات العيون الذهبية ، إنها الإنسانية التي نتساءل عن الأرض التي شهدت مولدها .. ونحن نتأمل عينات من نوع غريب ونردد عبارته هو بلزاك نصف الإله « هل يطلب من الفن أن يكون أقوى من الطبيعة ؟ » إنها معجزة بلزاك .

ونتلمس الإنسان الشامل عبر شفافية الفردية . فبلزاك يتابع سلالة كبار الكلاسيكيين . إلا ان السحر يتقطع فجأة بسبب ضحكة ساخرة : « حاجتي ، إنها الأم سيبو (Cibot) » أو - « حين حضرت بالأمس بكل أناقتها إلى سهرة فلان .. شعرت اني أرى ديان دو موفربتيوز (Diane de Maufrigneuse) . يا لها من مغوية رجال . » لهذا السبب يسيء الناس ببعض رواياتهم إلى هذا المثل « أنه مطابق لبلزاك تماماً » .

من العبث ومن الخطأ أن نواجه لدى بلزاك بين الروائي والمؤرخ ، وبين المثالي والواقعي ، فيها متداخلان متكاملان ولا يمكن أن يقوم أحدهما دون الآخر . وإذا كانت أبطاله الشهيرة نماذج متطرفة إلى أبعد حدود التطرف ، بفضائلها ورذائلها مثل غوبسيك (Gobseck) ، غراندييه (Grandet) ، فوترين (Vautrin) ، هولو (Hulot) مارساي (Marsay) وهي نماذج استثنائية لحسن حظ الإنسانية - أقصد الارذال فقط - فانها

صحيحة في كل تفاصيلها . ولم يعد اليوم أحد يعترض على كون بلزك مؤرخ العادات . فقد وهبنا عن فرنسا القرن التاسع عشر ، وهذا الكتاب الذي نتحسر عليه جميعاً . هذا الكتاب الذي لم تخلفه عن حضاراتها لا روما ولا أثينا ولا صيدا ولا ممفيس ولا فارس ولا الهند المقدسة .

وتقول جورج ساندر انه « كتب لأرشيف تاريخ العادات مذكرات تصف القرن الماضي » . وكان يذكر في رواياته الأولى بعناية . أشكال الملابس البالية ومكملات الزينة والعادات والأشياء وبقايا القرن الماضي ، التي تظهر غرباء أو مضحكين هؤلاء العجزة الذين حافظوا على عاداتهم القديمة في هذا العالم المتطور .

لقد بقي فضولياً يجب معرفة هذه المخلفات التاريخية الحية ، متنبهاً لخصائصها كالموثق وعالم الأثرىات والمحلل . أليس هذا موقف المؤرخ والمحلل : وهكذا يبقى رأي فلوير (Flaubert) غير قابل للنقاش ، لا يمكن لأحد أن يكتب تاريخ حكم لويس فيليب (Louis Philippe) دون العودة إلى بلزك . ويمكننا أن نقول نفس الشيء فيما مضى حكم لويس الثامن عشر وشارل العاشر . والوثائق التي تفيض بها الكوميديا الانسانية تعطيها « قيمة كتاب جدليات » . ويؤكد برونيتير (Brunetiere) في كتابه بلزك أن الكوميديا الانسانية تساوي مذكرات نخدم تاريخ المجتمع في عصرنا . وأنى قائلاً بانني من هؤلاء الذين لا يعتبرون مغالياً تقييم أناتول

فرانس (Anatole France) لبلازك . إني اعتبره أكبر مؤرخي فرنسا الحديثة ، التي تعيش كاملة في مؤلفاته الضخمة ..

بلازك مؤرخ ولكنه يفعل مع الأحداث ويتأثر بها ، لذا أيقن مصير الطبقات الاجتماعية وعلاقتها «مرتبط بوضعها الاقتصادي» . وقد اتخذ السيد جان هرفيه دونار (Jean Hervé Donnard) من هذه الحقيقة بعد أن تأكد منها ، دليلاً لتحقيقاته حول الوقائع الاقتصادية والاجتماعية في الكوميديا الإنسانية . فقد دلت كل من طبقة النبلاء والبورجوازية والعامية في فترة الخلق البلزاسي الممتدة بين عام ١٨١٩ و ١٨٤٨ على تنافرها الشديد عبر عدة ثورات . انتصرت فيها البورجوازية . وأصبحت الطبقة المسيطرة لأنها تملك النفوذ والمال . ومن الرائع متابعة تطور الفكر لدى بلازك ودراسة ردة فعله لدى اصطدامه بالأحداث السياسية والاجتماعية والتجارية والمالية والصناعية والأدبية والفلسفية ورؤية التنافس الذي تثيره . ويدعم عدد من الشواهد التي اختارها الناقد العلاقات بينها وبين الآراء التي ساقها بلازك لتأييدها أو الاعتراض عليها مما يسمح لدونارد بالاستنتاج أن بلازك كان كاتباً ملتزماً وفق المعنى الواسع لهذه الكلمة ... فقد تميز دائماً بصلافة ، فيما عدا آخر أيامه . وعرف كيف يحافظ على استقلالية فكره وعمله . لقد رأى بلازك كل شيء وتوقع كل شيء . كان نبي العصر الحديث لأنه راقب وتفهم عصره بصورة رائعة .

- ٤ -

دور الوصف الفعال

لن نفاجاً بعد أن عرفنا ذهنية بلزك ، ونحن نراه يفرد مكاناً واسعاً للوصف ويعطيه دوراً أساسياً في الروايات . فهذه وسيلة بليغة في النهج المركب : رسوم محددة ، مرسوم غني بالألوان ، تفاصيل دقيقة كذلك تلقى الخطوط والألوان الضوء على بعض الأشياء وبعض الخصوصيات ، التي يرى فيها المراقب محملاً أن « أكثر من قضية تستدعي وتتطلب حلاً » . وتبدو « مشاهد من الحياة الخاصة » وكأنها قاعة عرض يفضح فيها الأسلوب النوايا : فهو لا يكفي ولا يشبع نهمه بالسيطرة على الطبيعة والتقاطها في لوحته ، بل يدخلها وكأنها ممثلة تقوم بدورها المستقل ويدمجها في لعبة الانقلاب (تغير مفاجئ في وضع بطل مسرحي أو روائي) وتطورات العقدة . وحين نفهم هذه المزية نجد أنها تندد بالمستوى المتدني الذي يحاول البعض وضع هذا الوصف فيه بسبب وفرته وطوله المتأدي ونود تحديده من خلال بعض الأمثلة المأخوذة من مشاهد من الحياة الخاصة : (١٨٣٠ - ١٨٣٢) والروايات المؤلفة في النهاية (١٨٤٦)

لتوقف ونتأمل في شارع سان دينيس منزل السيد غيوم (Guillaume) تاجر الأجواخ العتيق بواجهته الغربية التي تنصب

لافتة لها قطة تكب (la maison du chat qui pelote) : وفي
الفيوور سان جيرمين (Faubourg Saint Germain) قصر دوقه
لالجيه «القديم والفخم» وفي شارع تورنيكه سان جان
(Tourniquet St. Jean) البيت المعتم الذي تقيم فيه كارولين
كروشار (Caroline Crochard) مع والدتها : وعلى ملتقى شارع
تمبل (Temple) العتيق وشارع فرانسوا الجديد القصر الذي تعيش
فيه السيدة غرانفيل (Granville) وفي شارع تيبو (Taitbout)
الذي يخفي فيه السيد غرانفيل الزوج هيامة بكارولين (العائلة
المزدوجة). ثم نصعد السلام ونتوغل إلى داخل المخزن والصالة
وغرف النوم.

لقد عرفنا قبل ان نرى سكان هذه المنازل أهواءهم واسرارهم
من خلال زينة البيت الخارجية والداخلية التي اجبرهم سوء مصيرهم
على الايواء فيه ان لم تدفعهم إلى إختياره اذواقهم ونزواتهم . وحين
يتصور بلزак الإخراج تتكرر تحت ريشته ثلاث كلمات فهو يفترض
دائماً، أن مراقباً... يفسر خصوصيات الأمور والأشخاص ليصل إلى
التناسق الذي أعده بلزак مسبقاً بين هذه التفاصيل وارواح هؤلاء
الناس الذين يدفعهم على المسرح نحو المساة وهو لا يجد أية
صعوبة في رؤية هذه العلاقات. أليس هو واضعها ومراقبها «كل
شيء متناسق» لأنه هكذا اراده ولأنه يرغب في برهنة هذا المبدأ «علم
الزينة» الذي تتداخل فيه معلومات عالم الأثريات وتاجرها . فهو قادر
على الدلالة على عقد صاحبها النفسية والذهنية . هذا العلم هو المنظم

الذي ينم عن تناغم الفرقاء ووحدة الإلتباه وهو في نفس الوقت، أحد هؤلاء الفراشين الذين يرشدون الفنانين: ويقولون اليوم أحد المخرفين الحذقين الذين يعتمدون على علم النفس الفيزيائي المطبق لتساويل أو استباق اذواق زبائنهم. ويمكن لهؤلاء المخرفين اعتبار بلزاق سلفهم الشهير. ذلك أنه يمكن رسم صالة الدوقة كاريفيليانو (Carigliano) وغرفة استقبال السيدة غرانفيل وغرفة نوم كارولين كروشار (الشهيرة باسم كارولين دو بيل فوي Caroline de Belle feuille) ووضع وصفها في إحدى المجلات فتشكل دعاية جذابة لبعض صانعي الأثاث: فكل قطعة: سرير أو مكتب أو صوان أو بساط أو مرآة أو ستار، تدل على افكار من نحيط بهم، يزيدون بجهاها ويزبون سحرها. اما السيدة غرانفيل فانها على العكس من ذلك «تسم عالمها من الأشياء بطابعها وصفاتها». وهكذا تبرز حقارة وضيق وجفاف وتصلب إخلاصها الصوري في هذه الترتيبات. لقد باشر بلزاق مهمة سيقمها برضى بعد مرور اثني عشر عاماً بتسمية «راوي مآسي الحياة الخاصة، وعالم أثريات المنقولات الاجتماعية» لقد ألقى الضوء فجأة على مبدأ حابسم ليستعمل منه كافة استنتاجاته والافراد الذين يتحررون منه يسرون عادة نحو نهايتهم، عادة وليس حتماً. وللوضع الإجماعي صُدفه التي لا توفرها الطبيعة». فالبنى تقولب الارواح والنفوس وتفرض التقيد بالقوانين الموافقة لتطور النوع. والسؤال الآن هل تغير النفوس شروط السكن؟ إنها تنهار. فالأوضاع المعنوية تتبع التعديلات المادية وقد يمكننا القول أنها تتأثر بالتغيرات المحلية.

(لنستخدِم منزل القطبسة التي تكب
la Maison du chat qui pelote لبنين صحة وصوابة هذه
الحقايق البلاكية . إنها الرواية الأولى التي افتتح فيها بلزك مجموعة من
الوسائل التي سيجعلها نظاماً : إننا نجد ثلاثة أوصاف تبعتها ثلاثة
أوضاع حاسمة . وهي تعلن بالتباين عن بقية الطوارئ والانقلابات التي
ستحدد مصير البطلة وتؤثر إلى المنعطفات . فهناك أولاً المنزل التجاري
المتصّب الذي يخلد منظره المتهدم هذا المعجزة في عالم الاثريات نوعاً
من الحياة الذي يتوجب التناسب مع كاثات مبنى قديم . سور هذا
المبنى درب أوغستين غليوم (Augustine Guillaume) ذات
الفضائل المعتدلة ، نموذج ربة المنزل صاحبة العقل التجاري ، المتبدل
وان كان متدفقاً في استقامته . كانت توفر السعادة العائلية البسيطة
والافراح التي تعوض عن الحياة الكادحة وفي مقدمتها لذة إدخار المال
الذي ربحته بعملها الشاق . وكانت « الشابة ترعرع في صمت المتجر
المظلم كما ترعرع البنفسج في أعماق الغابة » ، بعيداً عن عواصف
الأهواء وفي مأمن منها . كيف يمكن للتروات وللمزاج الحر المنطلق ،
للفرح الشعري واوهام الخيال والأهواء واحياناً لهذيان الالهام الوثاب
أن يقترن بالتنظيم الدقيق ، والتوقيت المنظم والاعمال الرتيبة التي تسجل
نتائجها الإيجابية فوق دفتر الحسابات الكبير الذي امسكته اوغستين
بعد والدتها واثر زواجها من الكاتب الذي خلف والدها ؟ يظهر هذا
التنافر على صورة فنان رسام نبيل باصوله تيودور دو سومير فيو
Théodore de Sommerville الذي سحره جمال الحسناء الشابة

وتذكر المأساة في الخروج عن هذه التقاليد السحيقة ، العريقة في قدمها ، التي مثلها وحاجها حتى اليوم هذا المنزل الوقور . وتنفاد أوغستين وراء سحر الحب وترفض بسبب نزعتها الفردية الاستماع إلى نصائح أهلها وتزوج من الرسام .

وفيما يلي الوصف الثاني والتناقض الثاني . بعد ان يتدق الزوجان رحيق شهر العسل لمدة عام يبدأ سوء التفاهم بالتحريك بينها ، فالترية التي تلقها اوغستين لم تعدها قط للعيش في أوساط الفنانين ، وهكذا تعجز عن التأقلم وتفهم نزوات تيودور الناجمة عن اندفاعه لفنه . وتدفع حشمتها وتصلبها في تطبيق المبادئ التي اخذتها عن والدتها زوجها إلى اللامبالاة بها . ويتزايد فتوره يوماً بعد يوم . وينصرف عنها . خصوصاً وان تفاهة افكارها تمنعها من التخلص من تعصبا وتذهب كافة جهودها ومحاولاتها لاسترجاع زوجها أدراج الرياح وتكتسب سعادتها ويعتاد تيودور دو سوميرفيو Théodore de Sommervieux على هجرة المنزل الزوجي ويتكرر غيابه عنه رغم ولادة طفل لها . ويتعلق بالدوقة ووكاريفليانو (Carigliano) وهي مغناج شهيرة في البلاط الامبراطوري . مما يدفع اوغستين بعد ان تسكب الدمع دماء إلى تقرير اللجوء إلى نصائح ومواساة عائلتها .

وينفتح امامنا قصر بورجوازي صغير في شارع فيو كولومبييه (Vieux colombier) حيث يعيش الزوجان غليوم على الضجر يقاتون الملل بعد ان تحلوا عن المحل التجاري للإبنة البكر فيرجينيا

(Virginie) العاقلة والحذرة والرشيذة التي تزوجت من مساعد والدها ويده اليمنى جوزيف لوبا (Joseph Lebas) لقدحول الترف البارد الذهبي والفضي الذي لا ذوق فيه هذا المنزل إلى «سوق» وجعل من كل غرفة فيه «مصلى» ويتراءى كل هذا لأوغستين المتطورة اليوم وكأنه صورة لعالم اصطناعي ، متخلف فارغ من المشاعر ومن «الافكار التي تبث الحياة في العروق». وتتعدد الازمة فكيف يمكن أن ينجى النصح والارشاد والعون في محنتها من قبل اناس يمثل هذه الحسة يعتبرون الحب غباوة وقصصاً مملة . فكان لا بد من البحث عن ملجأ آخر بعيد عنهم . وكان الانطباع مشابها حين لجأت أوغستين بقلبيها المثقل إلى جوزيف وفيرجينيا لوبا (Joseph et Virginie Lebas) اللذين يتابعان في المخزن العتيق الحياة الرزينة الرتيبة التي تحافظ على سمعة -القطعة- التي تكب . (chat-qui-pelote) ولا نجد روح الاخت الحيرى أي صدى لديها . فيها يقابلانها بالحديث عن أخلاقية شارع سان دينيس (rue Saint-Denis) : فهذه تكفيها لتحديد مسلكها لكن أوغستين قد رفضت هذه المفاهيم بهربها منذ زمن بعيد . وتكون القطيعة شاملة هذه المرة وتبتعد البائسة بارتياح عن أصحاب العقول البليدة وعن منزلم القطيع . وتشكل هاتان الزيارتان زيارة واحدة ، كما يشكل هذان المحلان المختلفان بمظهرهما بيتاً واحداً . فترل الأهل الكتيب ليس الا مؤخرة المخزن المعد لاستراحة «المعلم» . وتخرج من هنا مسمثة وقد اعتبرت حياتها فاشلة متهمة هؤلاء الناس المختبئين

وراء الجدران المغلقة على الخارج بصنع تعاسها. فقد اوصدت هذه الجدران على قلبها ومنعته من السمو في علياء العاطفة بعد ان أغرقته بالإرشادات. ونزلت به إلى المتطلبات الصغيرة الخسيسة. فن كان ليدر بها على اسرار الحب المثيرة، أسرار الحب الذي يروض الرجال ويسيطر عليهم؟ لقد فات الأوان الآن.

كشف الوصف الثالث للمرأة الشابة بتناقضه العنيف، الهوة السحيقة التي تفصلها عن زوجها وتقضي على سعادتها. استجمعت اوغستين الخجول شجاعها، شجاعة «خارقة» وقررت مواجهة دوقه كاريفليانو (Carigliano) السيدة الشائخة التي عرفت فيها غريميتها ومنافستها المتصرة. كيف ستتحمل البنفسجة المتواضعة الاجواء الخائقة في قصور فوبور سانت جيرمين الفخمة والقديمة؟ وهي لم تدخلها من قبل «وحين عبرت اوغستين هذه الاروقة الفخمة وصعدت هذه السلالم الفخمة وجازت هذه الصالات الواسعة المزينة بالازهار رغم قساوة الشتاء والمنسقة وفق ذوق هؤلاء النسوة اللواتي ولدن وسط الرخاء أو اخذن عادات الارستقراطية المميزة. شعرت بانقباض في صدرها. واشتت اسرار هذه الأناقة التي لم تخطر على بالها قط في السابق. وتنشقت سمات العظمة وفهمت جاذبية هذا المنزل على زوجها». جاءت تنوي الاستفسار من الدوقة عن الحيل التي سلبتها حب زوجها سومرفي Sommervieux وهنا بدأت تفهم وهنا أيضاً يرد تناقض جديد، فكان واجواء هذا القصر المفرط في الترف والأبهة ترمز إلى الفتنة الساحرة. وتثور أوغستين مرة ثانية على

ماضيها حين يسمح لها بالدخول إلى الصالون الصغير حيث تتلقى
 المعبودة المستلقية بشكل مثير «كتمثال قديم» تعبير معجب عن هيامه
 يجالها وهو ضابط في فرقة سلاح الفرسان «آه لو انني ربيت مثل هذه
 المحورية!» نعم فالاشياء تسيطر على الكائنات تنسى الدوقة عجزتها
 وتتخلى عن انانيتها القاسية وتطلع الزوجة الحزينة على تجربتها وقد
 احتدم خيلاؤها، فتكشف عن الاسرار التي تضمن تفوق المرأة على
 زوجها «ان الاغبياء يعتبرون المظاهر الخارجية نصف الحياة» وهكذا
 يتحول أكثر من موهوب إلى احمق رغم كل عبقريته. انها ترهات
 ولكنها مجهولة تماماً في منزل تاجر الاجواخ السابق. يا للسخرية
 الدوقة «أمرأة قوية» وابنة تاجر الجوخ امرأة ضعيفة انها ثمرتا أوساط
 مختلفة فاوغستين ليست مهيأة قط «للتفاعل العنيف مع العبقرية»
 ويعيدنا التشبيه النهائي إلى مبدأ السكن. فالزهرة البسيطة المتواضعة
 المفتحة في الوادي تموت عندما تنقل إلى المناطق المرتفعة حيث تشكل
 العواصف وتمرق الشمس.

ويمكننا إعادة تقديم هذا البرهان فيما يخص رواياته العشرين
 مع اوجنيه غرانديه Eugénie Grandet (١٨٣٣) وكاهن القرية
 (١٨٣٧) حيث يتمثل منزلان وصفين نفسيين فيزيولوجيين لفتاتين
 ولدتا في أوجنيه غرانديه وفرونيك سوفيا
 (Véronique Sauviat). كذلك في الأوهام الضائعة
 تدل مطبعة سيشار الاب (Séchar) بمظهرها المهتمد الوسخ وأثاثها
 المسوس المنخور على هيئة العجوز البخيل الذي يكره ابنه. ومجد

وضع أوغستين غيلوم امام دوقة كاريفليانو متمثلاً في ابنة العم بيت (la Cousine Bette). فالبارونة الفاضلة هولو (Hulot) تذهب إلى مغنية الاوبرا جوزيفا ميرا (Josépha Mirah) تطلب منها اعادة زوجها الذي تظنه أسير حباك الفنانة الشهيرة لكنها تجد عاشقاً جديداً قد حل مكانه. وهنا أيضاً يدل التناقض في المكان على التناقض القائم بين النفوس. وهنا أيضاً تدهش عظمة الإطار الشبيه بالفخ عيون البارونة المسحورة ببذخ الأثاث. وهنا أيضاً تتأثر المغنية السئمة تماماً كالدوقة كاريفليانو أمام العظمة الساذجة والمهية للزوجة الكثيية. وتخضع للمرة الثانية الانانية أمام البراءة والفضيلة وتتحول الغانية إلى خادمة للمرأة ذات القلب الصافي.

تدل رمزية الاشياء وآثارها في الارواح على مفاهيم الروائي بصورة عميقة. فالدوافع اللامرئية تحرك المآسي الكبيرة إلى درجة تؤثر معها الاشياء الجامدة بتيارها المغناطيسي على المصائر كالأحياء تماماً. ونستشف نظام التوافق الذي سيشغل إلى أبعد الحدود. فلحصاة فجورد (Fjord) افكارها ولغتها اللطيفة. وبوسع بلزك استعمال هذه الوسيلة لتشمل الصور، فاي اشارة أو خاصية في الملابس أو مكسر في الثوب أو سمة في المظهر أو التسريحة أو الشعر المسطح وتموجاته ولون الجلد هي دلائل تدل على اخلاقية الناس وظروف حياتهم ووسطهم الإجتماعي فهي تدل عليها بنفس دقة الكلمات والتحقيقات وتعبر عن ميولها. من لم يشعر بنفاذ الصبر والقلق وهو يحاول فهم أرغة المعرفي اليهودية الالمانية البارون نوسينجين (Nucingen) في عدة روايات من

ومشاهد من الحياة الباريسية Scènes de la vie parisienne التي جمعت تحت عنوان عظيمة وبؤس العاهرات ؟ وأي بذاءة وأي صور خاصة في زعيق وكلمات المحكومين بالاعدام !

ونسحر دائماً بالكوميديا الانسانية حين نكثر من ارتيادها. فاختيار التفاصيل يستدعي فوراً معناها الاخلاقي في فكر القارئ. فينتشي بمسكر غريب وهو يفسر تصرفات أقرانه لاحسب تقويمه الخاص بل وفق اصطلاح بلزاسي حل مكان ممارسته الطبيعية ممارسة المنطق والتجربة. وسواء دخل إلى غرفة استقبال أو لدى بائع أثاث قديم (غشاء الكآبة) فهو يذكر بسرعة ما يمكن تسميته باسس بلاغة بلزاك. وكذلك هو الأمر بالنسبة للاشخاص الذي يكتشف نماذجها الأصلية لدى مؤلفة المفضل : ونبجس الاسم على شفتيه. ويصبح عاشق بلزاك الفعلي ملاحظاً دقيقاً وكأنه أثر الصدمة الارتدادية وهو يدرس بدقة داخل المنزل ليستتج منه الوضع المعنوي لقاطنه. ويلجأ إلى قاعدته المفضلة المقارنة أي جمع النماذج التي خلقها ربه. هل يشكل هذا الفن الساحر سراباً خطيراً لمن يعاني منه ؟ الكل يجيبون أنه يزودهم بثقوب الفكر والتجربة والحذر. ولم يعد لنظرية الاوساط إلاقمة نسبية وان لم تفلس تماماً. هازال الروائيون يتابعون استخدامها، ولكن هناك بعض التفسيرات النفسية الفسيولوجية الاخرى المتميزة بعلمها وعلميتها وتأقلمها مع ليونة الديناميكية الانسانية :

الجزء الثاني
تيار الأفكار

- ١ -

المعنى الفلسفي للبحث الخيالي الخارق

بدا انتاج بلزك خلال الستين (١٨٣٠-١٨٣١) غزيراً وفوضوياً. ويمكن لوردة الرياح أن تكون رمزاً له. فقد انطلق نشاطه نحو الجهات الاربع وتوجه نحو النقاط الجانبية. وإذا غيرنا التوجه وعدلناه بعدة درجات سواء يسرة أو يمنة فإن هذه الأنواع الأدبية المختلفة يمكن أن تدفع نحو هذا الخط أو ذاك بسبب عواملها المتعددة، فتنتقل بتطابقها مع احدى الأعمال السابقة من مشاهد من الحياة الخاصة الى مشاهد من الحياة العسكرية الخ.. الموضع موضعها يتعلق بالانطباع السائد في فكر القارئ.

لقد استوحيت هذه الصورة من تعبير «الأجولية الأدبية» التي يستعملها القصصي في مقال له بتاريخ ٢٩ أيار ١٨٣٠ «الدُرْجَة في الأدب». ليعلن دُرْجَة العام المقبل وتوجهه «بوسعكم الاختيار بين اللون والمأساة بين الخيال والواقع»، وقد نشر «غشاء الكتابة» في آب ١٨٣١ ثم طبعها للمرة الثانية وأرفقها باثنتي عشرة رواية وأعطاهم عنواناً واحداً عاماً «روايات وحكايا فلسفية». وعام ١٨٣٢ أثرت السلسلة بـ«حكايات فلسفية جديدة».

تبدو الصفة للوهلة الأولى مدعية متباهية. فالرجل المفكر

يستشف الفلسفة في كل الأمور حتى في القصص الغريبة والهزلية
والهزينة. وكانت كلمة خيالية أنسب إلا أن بلزك رفضها: حين
ظهرت في شباط ١٨٣٢ «الحكايات الداكنة» التي ساهم فيها بلزك
مع فيلاريت شال (Philarète Chasles) ورابو (Rabou) أعلن
في مقال نشره في «الكاريكاتور (Caricature)» «لنبداً بتهنئة واصفي
الحكايات الداكنة لعدم استعمالهم كلمة خيالي في العنوان، فهذا بيان
متداول لنوع ما زال مستجداً، لكننا استهلكناه لكثرة ما أسانا
استعمال اسمه فقط. وإذا ما توفرت مرة شروط مثل هذا العنوان فقد
تحققت في المؤلف الذي نعني به: عين بلا جفون، جسد بلا أذرع
رأس بلا صاحب، تفاصيل عن حياة في عالم مختلف. تلك هي أنواع
الخيال والاعاغي جاهل لا أعرف شيئاً... وينطبق هذا الحكم على
المؤلفات السابقة «الكسير الحياة الطويلة
(l'Elixir de longue vie) الصفر (Zéro)، رقصة
الحجارة (la danse des Pierres)، كوميديا الشيطان
(La comédie du diable) الفنـــــــدق الأحمر
(l'auberge rouge)، يسوع المسيح في الفلانـــــــدر
(Jésus Christ en Flandre)، غشاء الكآبـــــــة
(la peau du chagrin). لقد أخصبت الحكايات الخيالية التي
وضعها هوفن (Hoffmann) وترجمها لويث فيمار
(Loève Veimar) (١٨٢٩) وزادت حب الجمهور لتذوق هذه
الدرّجة. وقد اتبع جول جانين (Jules Janin) الخط السائد في

كتابه «الحمار الميت والامرأة المعدومة بالمقصلة» (١٨٢٩)
 (l'Ane mort et la femme Guillotinée)
 والاعتراف (١٨٣٠) (la Confession). فأيقظت هذه الموجة لدى
 بلزاك ميلاً بدا لديه في مؤلفاته الأولى التي وضعها قبل عشر سنوات
 فـالتورن (Falthurne) ستيني (Stenie)، المنوي
 (le lentenaire)، الجنية الأخيرة (la dernière fée)،
 ارغو القرصان (Argow le pirate). لقد صاغ حبيكتها بمظاهر غير
 طبيعية تعود الى القوى المجهولة في الجسم الانساني والمشبعة بالجو
 الحيوي والتيار المغنطيسي الذي يقذف بطاقاته عن بعد ليحقق ارادته .
 ثم بدل الروائي الشاب سحر آن رادكليف (Anne Radcliffe)
 وماتورين (Maturin) بعالم يملكون قوة كبيرة يعمد الى تعليلها
 علمياً. وكذلك استخدم في مؤلفاته المسماة فلسفية غشاء الكآبة. هذه
 التعويذة السحرية التي تمكن مالکها من اشباع كافة رغباته وهي
 تتناقص بتوفر كل لذة جديدة ويؤدي تلاشيا الى موت مالکها.
 كذلك هناك الألكسير الذي يجيي المحتضرين ويحفظ لهم حياتهم ،
 وهناك احتفال يوم السبت الليلي في الكاتدرائية حيث
 تراقص الأقبية والركاثر والمقراء وتعزف الأرغن وحدها . وهناك الوثيقة
 الشيطانية التي تضفي الشباب على جسد ملموت (Melmoth) بعد
 أن يدفع روحه ثمناً . فلا بد من تقديم تنازلات للتوافق مع ذوق
 العصر. ولكننا سرعان ما ننسى هذا الغشاء الشرس ، ونهزأ من سخف
 الميثاق الشيطاني الذي يقيم في البورصة كأى سهم عادي .

فنحن نعرف حقيقة هذه الأحداث الغريبة ونعي أنها رموز باردة. ألا يبدو الفنان ماهراً باستبدالها ببواعث وعلل طبيعية؟ غشاء الكآبة هو رمز السل الرثوي الذي ينهش رفاثيل. إنه العربة السحرية التي تنقلنا بين كافة الطبقات الاجتماعية لنشهد كيفية تطبيق المبادئ الفلسفية فيها وقال فيلاريت شال (Philarète chasles) أن غشاء الكآبة والحكايات هي مؤلفات «تنحصر فيها الملاحظات الحقيقية والذكية ضمن اطار السحر». لقد هدف الكاتب الى رسم «خيال عصره» في لوحات صادقة بصحتها. ورمى الفكر الى نقل الحكمة المنقوشة على التعميدة بلغة واضحة. كمننت روعتها الحقيقية رغم أنها عجيبة ، في ذكر وتعداد ألوان الحضارة الهائمة المتطلعة الى الملذات الجاحمة في مجون الأهواء عبر الترف المنتشر بوقاحة الى جانب البؤس الاجتماعي. وتؤخذ العبرة الفلسفية بالدلالة على آثار هذه التطرفات خصوصاً وان بلزك قد اعتبر هذه الحكايات تقلبات لفكرة غشاء الكآبة التي عاجلها في السمفونية. فهي في عمقها تشكل دراسة للعادات ، وتعتبر نافذة بأهدافها ، وخيالية بشكلها ، وفلسفية بهدفها الفوري لأنها تقتضي البحث عن أسباب الفوضى الاجتماعية.

لنعد تشكيل النظام الفلسفي لدى بلزك. من أين يأتي مرض العصر وهذا اليأس الذي يلاحظه المراقبون والأطباء في صفوف شباب عام ١٨٣٠؟ خصوصاً وأنه لم يسبق لحمى الملذات أن ملكت مثل هذه المجموعة من المتع ومشاعر أكثر رهاقة وأكثر عنفاً. حيث وحدث الروح والجسد ثرواتها، فكانت كلما اشتدت هذه المشاعر كلما

يشس هؤلاء الشباب فلئكل تجاوز ثمنه . ذلك ان الحواس تضعف من ممارسة هذه اللعبة الرهيبة وتستهلك القوى العصبية وتمتلى الروح بالفراغ كلما ازدادت وارتفعت الدعوة إلى النهاية فيتفرز المرء ويشمتر ولا يعود الجسد يستيقظ إلا بواسطة إثارة متزايدة وغير منتظمة لحاجته إلى شهوانية جهنمية مما يدفع العقل إلى ابتكار واختراع ملذات مفتعلة وتحسين وسائل المتعة . أليس هذا هو المهدف الذي يتوق إليه تقدم الحضارة الحديثة ؟.

« يتحول الفجور والفسق إلى فن عظيم كالشعر » . وترتكز قاعدة هذه الأنانية على السلطة والإرادة مجتمعتين . وهي تؤكد ما قاله جان جاك بأن « الانسان الذي يفكر هو حيوان فاسد » ويردّد بلزك « لا بد من اعتبار الفكر الواقع الأساسي في اضطراب الانسان » . فكلما تحضر الانسان كلما نحر نفسه لأن « الحياة تتناقص وتنخفض كلما تزايدت رغبات الانسان » . ويمكن لحكمة أبيقور أن توفر لنا الوقاية الفعالة من هذه القاعدة الثانية : الرؤية والمعرفة ، فاكتشاف فحوى الحدث بواسطة الذكاء ، والتمتع به بواسطة الحدس بعيداً عن القدارة الناتجة عن التملك الجسدي الذي يتحول الى أفكار بعد إشباعه . فحققوه دون إرهاق أعضائكم . فهذه « الشهوانية المثالية ستوفر لكم أفكاراً تنفيذية إذا كنتم من الفنانين » . هذا هو الاجتهاد الجميل الذي تعلمه المعجزة البلهاء السبعينيات للشباب دون جدوى . وتكذب إحداهن بصورة مضحكة نظرياتها بعد أن عرضتها على رفايل (Raphael) بطل الرواية فهي تعتبر أن « ساعة من الحب » تنقاسمها مع « شاب

غول» أكثر ضرورة من «هذه الأفكار الأشباح» وهذه الأوهام الفارغة. فقد قتلت الفكرة المفكر. وتبين أن الجمود في الحياة والاعتدال والتنكر للملذات التي علمها والد بلزك لابنه لا تعني شيئاً للولد. وكل ابطال غشاء الكآبة، رفايل وفيودورا وتاجر الأثرينات العجوز والعاهرة أكيлина (Aquilina) (المعرضة للموت في المستشفى) يفضلون عدم فقدان أي شيء إنطلاقاً من الغبطة المسبقة حتى آلام الأهواء المبرحة. فالموت هو مقايضة.

سندرس القيمة العلمية لهذه المبادئ الفلسفية، لكننا لن نناقش بعدها الاخلاقي الذي ادعى به المؤلف والذي ندد به دولاتوش (M. de Latouche) وسانت بوف (Sainte Beuve) ومونتالمبير (Montalembert). تكمن جدارة هذا الشعر - فقد كان بلزك يكره تسميته رواية- في رسم أكثر الأوساط تبايناً التي تنقلنا فيها «هذه الفتنة الشرقية».

منح وأعطى هذا «السحر في الخلق» وهذا النقد اللاذع وهذه الشعرية الملونة الحواس بتوهجاتها، تحسناً بأكثر الوقائع مأساوية . وإشعاعاً مضيئاً ونعومة الغزل البريء الغض. إنها دوامة تتسارع حركتها في لمعان وفرقة السوط، ويرهق المروض مخلوقاته هذه الوحوش الحقيقية المزججة لذة، التي لا تشبع والتي لا تتعب في ثملها. ويضغط الحبور على الفنان ويدفعه في رقصة الألوان والايقاع والصور والأصوات. ويتلوى اسلوبه ويتموج نثره ويخضع لتغيرات المشاهد

ممهارة لا مثيل لها . ويبقى رغم كل شيء مؤرخ القرن التاسع عشر الذي قتلته سم التطرف في الحضارة .

نجمت الحكايا الفلسفية وفق مؤلفها عن القاعدة الواردة في غشاء الكتابة . فحدة الفكرة أو كثافة المشاعر سواء كانت مشاعر فرح وحبور أو أحاسيس ألم روحي ، تخل بنظام القوى الحيوية وتدمر الجسد . وقد أتى الدليل على ذلك في الوداع (Adieu) . ففي ممر بريزينا (Bérésina) تفترق الكونتيسة دوفانديير (de Vandières) بعنف عن صديقها . الأمر الذي يدفعها الى الجنون وترديد كلمة واحدة فقط الوداع وهي الكلمة الأخيرة التي قالتها لفيليب دوسوسي (Philippe de Sacy) الضابط الذي تحبه . وحين يعود هذا الأخير لا تتوصل المتوهة الناعمة الى التعرف على الكائن الذي لم يتوقف عن اعزازها . فيحاول يائساً أن يرد إليها عقلها ويعيد تشكيل الاجواء الفظيعة التي شهدت فراقها . الأمر الذي يسبب صدمة نفسية للتعيسة فتولد الفكرة فوراً . وتتوصل « الارادة الانسانية بسيولها الكهربائية » الى إحياء هذا الجسد البله وتغرق المرأة في دموعها حين تتعرف الى صديقها فتعانقه وتضمه وفجأة « تجف دموعها ويشحب لونها كما لو ان التيار قد صعقها » . ونجد وصفاً لنفس الآثار في المصادر (réquisitionnaire) لدى ام قتلها الألم حين وجدت ابنها . وفي مأساة على شاطئ البحر (un drame au bord de la mer) قتل صياد بريتاني ابنه لأنه خشبي أن يلوث له اسمه وهنا قتلت فكرة الشرف العائلي فكرة الحب الأبوي . وفي

الفندق الأحمر (Aubergerouge) قتل صديق صديقه لأن فكرة الجريمة تولد الجريمة وهنا برزت فكرة التسيير الذاتي.

وفي ال فردوغو (El Verdugo) قضي على الابن البكر قتل أبيه وإخوته لإنقاذ حياته. فقد أطاع أمر الوالد الذي رغب في بقاء إسم ولقب عائلته النبيل. وهنا أزلت فكرة الأسرة فكرة الحب الأبوي وفي اليكسیر الحياة الطويلة (Elixir de longue vie) قتل الابن أباه للحصول على ميراثه بصورة أسرع. وهنا برزت فكرة الوراثة. وانضم مالموت المبارك (١٨٣٥) (Malmoth reconcilié) إلى مجموعة الدراسات الفلسفية. وهي قصة رجل باع نفسه للشيطان ليحيا طويلاً ويغرف من الملذات وهنا نجد فكرة الحياة المديدة. وقد تجلت القوة والسحر والاشباح في كلتا الروايتين.

وبني علينا دراسة المؤلف المجهول le chef d'œuvres inconnu (١٨٣١) والبحث عن المطلق (la recherche de l'absolu) (١٨٣٤). إعتبرت الأولى مقدمة لمأساة لويس لامبير (Louis Lambert) فهي قصة رسام اسمه فرينهوف عاش في القرن الثامن عشر قتلت مخيلته الواسعة الباحثة عن المثل قدرته الفنية ، عمل سراً لمدة عشر سنوات في رسم لوحة امرأة كان ينقحها باستمرار وقد لفه الهديان والهيام مما قضى على التوازن بين حياته الداخلية والرشاد. وحين سمح لصديقيه بالاطلاع على اللوحة لم يجدا فيها إلا ألوان مشتتة وخرايبش لا شكل لها وخطوطاً متداخلة

فما كان هو يتأمل منذهلاً ما يعتبره جبالاً خارقاً، ولم يتمكن الآخرون من إقناعه بالعكس وإهدائه وقد قضى في الليل. وقد أعيا بالتأزر كلايس (Balthazar Claës) الباحث عن المطلق نفسه وهلك في مأساة مشابهة. فقد كان يحاول اكتشاف وسيلة تحليل الأزوت. وتثبت بهذا الأمر الذي يؤمن بلزك أن الكيمياء الحديثة قادرة على حله وتدفع هذه الأهواء بسبب تكاليف التجارب المترتبة عليها عائلة كلايس (Claës) إلى الإفلاس ومات الكيميائي يأساً معتقداً في لحظاته الأخيرة أنه اكتشف السر الذي بحث عنه طويلاً. وينضم بعد فترة طويلة المؤلفان غامبار (Gambara) (١٨٣٧) وما سيمبلا دوني (Massimila Doni) (١٨٣٩) المؤلفان المخصصان للموسيقى إلى الدراسات الفلسفية. وظهرت الموسيقى فيها بشكلها المزدوج المتعلق بالتنفيذ والتأليف الذي خضع إلى نفس تجربة لويس لامبير الفكرية (Louis Lambert) أي المؤلف والتنفيذ اللذين قتلتها وفرة المبدأ الخلاق. وما سيمبلا فتاة جميلة وتعيسة تنتمي إلى طبقة النبلاء في البندقية عانت من إهمال زوجها كاتانيو (Cataneo) الدوق المعجوز الماجن الفاجر. فقد كرس هذا المعجوز المهووس كل شيء، حتى ثروته، في سبيل لذة خيالية، أثناء بحثه عن نغم موسيقي وهو التناسق التام بين ألفة نغم الزير (دقيق الأوتار) والصوت الانساني. ونقطة الرواية الحساسة هي الفكر قاتل الفن. كذلك نجد لدى الأمير إميليو ميمبي (Emilio Memmi) عشيق ماسيمبلا (Massimilla) كيف أباد الحب المثالي قدرة الرجولة.

أعطى بلزك هذه المغامرات سرعة أضاقت نفس القارئ. فقد عرف فن الإيجاز وعقد إرادياً غرابة الأجواء.. فانطلق الشعر الغني بالضربات والمفاجآت والوحشية المأساوية والمؤامرات ولف الوجوه التي خطت لمساتها فيها الحساسية تارة أو القوة تارة أخرى، هذه الوجوه الملونة كتلائق الزجاجيات وهنا تكمن جدارة الراوي.

كان بلزك شاعراً أكثر منه فيلسوفاً. وهذا ما كان يمنعه من عرض نظرياته الفلسفية بصورة جدية. لقد كان الشعر عربية أفكاره. التي غذاها «العلم المختبئ» الذي حمل «طريحته في نفسه» وقد حاول وضع الصيغ الفيزيائية النفسية فيها كما يقول فيليكس دافن (Felix Davin) وقد أشرنا إليها. إنبعثت من نص هذه القصص تأملات فلسفية ونظريات عامة تعمق فيها لويس لامبير (Louis Lambert) وقدمها لنا محررة في صيغ صالحة للتأمل. وسيرافيتا التي بلغت نهاية تطورها الملائكي، أتاحت لنا الإستفادة من صياغة فلسفية شبه سويدنبورغية. فتعاليمها التي عرضت على شكل أطروحات واسعة انتقدت السبل العلمية والفلسفية حين رغبت في برهنة وجود الله وتحديد العلاقات بين العالم والإله الخالد. وقد وضع بلزك نفسه بعد فترة كتاباً موجزاً حول المغنطيسية في أورسول ميروييه (Ursule Mirouët) (١٨٤١) ودراسة حول علوم السحر والتنجيم في ابن العم بون (le cousin Pons) (١٨٤٧) ليضع بمتناول يدنا حجج أبطاله ويوضح لنا تصرفاتهم وغالباً ما كان يقترح في روايات

أخرى دافعاً من نفس الطبيعة في سبيل تحقيق نفس الغاية وقد بقي
أميناً لهذه القاعدة حتى النهاية.

ونجد في أسلوب بلزك المنهاج الفيزيائي الذي وصفه كاباثيس في
دراسته حول فيزيائية وأخلاقية الإنسان التي كملت بفضل ملاحظات
طلابه بروسيه (Broussais)، بيشا (Bichat)، دوبويتن
(Dapuytren). وقد كان لهذين الأخيرين اللذين غالباً ما ورد
ذكرهما في الكوميديا الإنسانية زميلان من الأطباء المشهورين ديسبلين
(Desplein) وبيانشون (Bianchon). والجدير بالذكر أن
التوثيق كان كاملاً وقد أكد بلزك أنه تمكن من إجراء المقارنة،
وتحليل وتلخيص المؤلفات التي تركها لنا فلاسفة وأطباء العصور القديمة
والعصور الوسطى والقرنين السابقين حول دماغ الإنسان . فقد غذى
هذا المؤلف فكره بمؤلفات القدماء مثل كاردان (Cardan)
وأبولونيوس ذوتيان (Appollonius de Tyane) وبورفير
(Porphyre) وبساراسيلس (Paracelse) وبلوتين
(Plautin) مما أتاح له خلق أغرب الأجواء التي عقدتها
الألغاز والأحاجي والآراء المزدوجة والتخاطر وملاحتها القوى اللامرئية
التي نستشفها من خلال الآثار التي تركها. الأمر الذي يجعل القوانين
السائدة دون علم من صانعيها أو الخاضعين لها مقبولة لبعض الوقت
سواء كانت من الفيض غير المبرر والانفجارات أو انعكاساً لأفكار
ليبر بها بالتالي إجراءات وتصرفات وحسد الأبطال ، وهكذا يستمر
توالي الأسباب في أجواء العالم الروحي كما في أجواء العالم الفيزيائي

ودوران الأفكار التي تشكل «ابتكارات حقيقية وفاعلة». ونجد في معجم بلزاك أن الفكر يساوي الإرادة، وأن الفكر يعني كافة مظاهر الحياة الداخلية والعقلانية والعاطفية والإرادية. والسؤال الآن إلى أي حد تختلف التصورية عن الإرادية؟

كل شيء يدعو إلى الاعتقاد أن الطبع البالزاكي يعجز عن تصور شيء دون أن يحاول فوراً العمل على تحقيقه وتنفيذه. فكل فكرة تميل لديه إلى التجسد بعمل. فهي ليست إلا تحول المادة الأثيرية التي تغذي الدماغ، انها نوع من «المطرية» (matras) الذي يفلت منها تيار مغناطيسي. وتؤدي النتائج الأخلاقية المترتبة على هذه الملاحظة إلى الجبرية. وغالباً ما كان بلزاك يشدد على التذكير بأن مبدأ السببية هو عماد كافة استقراءاته، ولكن أن تكون سلسلة المسببات سهلة التكوين كما يتصور حين يتعلق الأمر بإعادة بناء سلسلة من الأعمال الإنسانية وهم غرار. صحيح أنه كان يكفيه هو أن «يلقي على هذه التأكيدات الفجائية نوعاً من الضوء النفسي، بتوضيح الأسباب الغامضة التي أدت إلى وقوعها». أفلم يكن أحد مراقبي الطبيعة الإنسانية «القادرين على قياس قوة الروابط والعلاقات والوثائق التي توحد وتلحم بصورة سرية الأحداث ببعضها البعض» على الصعيد النفسي والأخلاقي؟ وعلينا ألا ننسى أنه قد ذكر قوة أشهر المنومين المغناطيسيين المعاصرين مثل الدكتور كوريف (Koreff) والدكتور شابلين (Chaplain) والبارون دويوتيه (Dupotet) وبالنازار (Balthazar) والأمير القس دو هوهنلوه

(de Hohenlohe) ، وأخذ تجارهم ودمجها بتجاربه الخاصة. أفلم يكن يعتقد أنه يملك قوة خفية مغنطيسية تتيح له التحقق من صحة النظريات ؟ لقد كان يعتقد نفسه متبصراً.

أخيراً ، لتجنب إساءة فهم معنى كلمة فلسفة. فقد قال لنا بلزاك في الدراسة حول العلوم الخفية « ان مختلف الفلسفات تشكل أمراً واحداً ». وهو يعتبر أن الفلسفة الحقيقية والوحيدة « الممكنة » هي « الانثروبولوجيا ». وقد دعا بكل قواه لإدخال تعليم « الفلسفة السرية » إلى الجامعة. ولا شك أنه كان يخلط في أفكاره بينها وبين السحر. « علم الأشياء الخاص » ، العلم الذي يكشف عن سير القوى ، المنتشرة في كافة أركان الكون. وبدا أن الانثروبولوجيا تشكل لديه إعداداً أو مرحلة أولى تتيح للبعض بلوغ الكمال أو دائرة المسببات التي تعيش فيها النفوس المحظوظة والمفكرون العظماء. وكان يصنف نفسه في هذه لفئة كما أنه كان يعتقد أنه يملك موهبة خاصة مثل نابليون موهبة معرفة ماهية الأشياء المطلقة بواسطة الحدس.

لإكمال عرض هذه المعطيات الفلسفية لا بد لنا من الإشارة إلى علاقات التي كان بلزاك يقيمها بينها وبين ملاحظات علماء الطبيعة مثل بينيز (Leibniz) ، شارل بونيه (Charles Bonnet) ، جيوفرواسان هيلار (Geoffroy Saint-Hilaire) ، كوفيه (Cuvier) ، لافوازييه (Lavoisier) الخ ... بواسطة فكرة وحدة التكوين لدى الكائنات . ويشكل هذا التوثيق العلمي المعروض بسذاجة الجزء الضعيف في مؤلفه ، فالوقائع التي يفسرها قوانينه الفيزيولوجية تمسك بخيط واحدٍ بالنظريات

التي يخترعها كما ان الارتباط المفترض يسمح له بالاندفاع في تحليل الأسباب وخصوصاً في وصف النتائج . لقد أعطى العلم لبلازك مادة فنية صالحة للاستغلال وهنا يمكن كل شيء .

غالباً ما توفرت لنا فرص الاشارة الى منهجي لافاتيه (Lavater) وغال (Gall) فقد تبناهما بلزك منذ بداية عهده بالكتابة . إن مصير ابطال بلزك مائل وموجه بواسطة اشارات مرسومة على الشخص وخصوصاً في خطوط ورسم وشكل الوجه الذي يطابق تشابه الحيواني الميزات . فالوسط الفيزيائي والاجتماعي الذي يؤثر على الفرد ويعدل في سيئاته هو الذي يخلق الفرق النوعي . ومن هنا نشأ علم السمات . وقد طبق بلزك عن ايمان مبدأ لافاتيه (Lavater) الأساسي « لكل شيء فينا عله داخلية » . وإن لم يلتزم حرفياً بكافة ملاحظات معلمه ، فقد أخذ منها الاشارات العامة وتكفل هو باقامة علاقات متبادلة سلطوية أو متحررة بين الميول وبعض تقاسيم الوجه ، هذه التقاسيم التي غالباً ما تكون تقاسيمه هو . كذلك هو الأمر فيما مضى علم الجمجمة الذي اكتشفه غال (Gall) وفق تصنيف عجرات الدماغ .

ولا يتوجب علينا لا أن نذكر إسم رواية ولا أن ندرج إسم بطل بل يكفي أن نقلب صفحات الكوميديا الانسانية لنجد هذا الوصف . فقد أفرد في بداية البحث عن المطلق أربع صفحات على الأقل ليصف بدقة واسهاب شخصية بالتازار كلايس (Balthazar Claes) ، ونرى أن كلاً من هذه الدقائق الفيزيائية

تدل على أحداث في حياته ، فشيته المهيبة هي مشية مفكر يجر الناس معه ، وتدل تجاعيد جبينه وشعره وعينيه وجلده ولون بشرته ، ووقفاته وملابسه وشكل رأسه على المشاعر والأهواء والعادات والميزات والمساوي الكامنة في هذه النفس الانسانية . ولذكر أيضاً بالتأني والتروي الذي كان بلزك يبذله في اختيار اسماء أبطاله منها : غوبسيك ز. ماركاس (Gobseck Z. Marcas) فقد حملت هذه الأسماء معنى مصيرها القاتم ، «فكرتنا مليئة بالأموال الغريبة المترابطة فيما بينها وقد نعود يوماً الى العلوم الخفية والسحرية . ونرد القارئ إلى الاستتاج الذي توصل اليه السيد ييار ابراهام (Pierre Abraham) في دراسته المعمقة حول «بلزك والوجه الانساني» انه -اي بلزك- لا يعتمد على الوقائع المشهودة بل يفكر بواسطة الكلمات الصور حين يضع ويؤلف على غفلة منه علم التشكل الواسع في كوميديته . فهو لم يستعمل من علم فراسة الدماغ وعلم الفيزياء نتائجها القابلة للاعتراض بل اخذ فكرتها الاساسية الخصبة التي اتاحت له اقامة التناسب بين الشكل الخارجي والاخلاق المعنوية . لقد كان يجمع بين الافكار المتحركة ، صانع الآداب هذا الدؤوب الذي لا يمل ، كان يجمع بينها بواسطة كلمات اللغة الفرنسية وسجعها والصور الكامنة فيها . كان يضع الاشارات ويوفر الدلائل ثم يعمد إلى تفسيرها وتعليلها وفق اصطلاحه الخاص . لقد كان الفنان يرسم مصيراً بواسطة الرموز والاستعارات .

لكن اين تكمن المسؤولية الأخلاقية في كل هذا؟ ليس هناك

اي نتوء فيها. فالانسان مهزوم مسبقاً في صراعه ضد اهوائه. لقد صرخ فيليكس دوفاندنيس (Felix de Vandenesse) «ايتها الطبائع الفقيرة العصبية التي وضعها غنى تنظيمك لا ادري امام اية عبقرية دون أن تتوفر لها أية قدرة على الدفاع عن نفسها. أين هم حكامك واين هم اندادك؟ ويعتمد بلزك الفيزيولوجي الكبير والاصلاحي العظيم هذا القانون الحتمي ، القدرى في حل ابطاله من كافة اخطائهم.

ماذا تضرر لنا هذه الزخرفة العلمية ؟ ان عظمته كفنان تقتضي أن يمحو من ذهننا براعة وميل القانون النفساني الفيزيولوجي . وتبهرنا لعبة المشاهد. فنندفع في المناطق الوهمية والمتنوعة التي يوجزها لنا الديكور فلا نعود نرى حامله. فبعد أن جذبتنا الصور الجميلة واثرت في نفوسنا وسحرت البأنا الكلمات التي تتناسق نغماتها مع الرمز المعد وتدعمه لم نعد لنهتم بالنقد ، بالتفكير المسلي في فرضياته الأولية وبديباته قبل موافقته عليها مثله تماماً : فبلزك لا يهتم قط بأن يكون منطقياً. فلا مكان هنا لصلابة التحليل والاستنتاجات التي تدعمه . وهو يسيطر علينا بيقينه القاطع ، بواسطة المبدأ المفارق . لماذا نجهد في محاولة رقابة نهج نزل علينا من موطن الآلهة مباشرة بواسطة وسائلنا الارضية الصغيرة . «فقوة الرؤية التي تصنع الشاعر وقوة الاستنتاج التي تصنع العالم تقومان على تناغم وروابط غير مرئية غير ملموسة وخفية يضعها الرجل العادي في مصنف الظواهر المعنوية التي تخلف آثاراً فيزيائية . «ان النبي يرى ويستتج». لقد ساوى بلزك بهذه العبارة

نفسه في العبقريّة مع بالتازار كلايس (Balthazar Claës)
فقد كان جهازه العضوي يلتقط التيارات من الأثير وينهل منها
افكاره . ويجمعها كلها في الدماغ ويعيد تشكيل ماهية الاشياء
من اجل استحضار حقيقي . فاياكم وان تحدثوه عن الهذيان . فهو
يدرك كل ما يتحدث عنه من اشياء وكائنات وظروف فيزيائية ادراكاً
تاماً حسياً حالياً . فليس هناك ماض او مستقبل لفنان من مستواه .
فهو يعتبر كافة الأمور فورية . لأنه ساحر لأنه نبي يرى ويستشج
ويطلق قوانين الاحداث قوانين القوى النفسية الماورائية اومايسميه
بالصوفية .

- ٢ -

معنى صوفية بلزك الخفي

جمع بلزك في أفكاره في مقدمة الروايات والحكايات الفلسفية (١٨٣٤) الجزء الاول من الولد الملعون والمحظورون ولويس لامبير ويسوع المسيح في الفلاندر وسيرافيتا . وقد اعترف أنه رغب في إضفاء قبس من الإيمان على مؤلفه وإغثانه بالأفكار المسيحية الخزينة حول التقمص الذي يبدأ بالآلام الدنسيوية وينتهي في السماء . لقد كان يتصور هذا المؤلف ويراها كاتدرائية «كاتدرائيته هو» . وكان يود أن يضيئه «بالأنوار السماوية» حتى يتجلى فيه جمال المذبح الصافي . وقد أكمل بلزك أو عدل بعض هذه الروايات التي صدرت في الفترة الممتدة بين عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٥ . كما زاد الكثير على رواية لويس لامبير التي شكلت عام ١٨٣٥ مع «المحظورون وسيرافيتا مؤلفاً واحداً سمي «الكتاب الصوفي» . ونحن نستجيب لهدف المؤلف حين نجمع هذه المؤلفات نتأملها بطريقة تسمح باستخراج فكرتها العامة ونظريات بلزك حول التصوف . وبعد أن ألحقت هذه المؤلفات في السابق بالروايات والحكايات الفلسفية ضمت فيما بعد بصورة نهائية الى الدراسات الفلسفية ونزعت عنها تسمية الصوفية وان بقي العنصر الأساسي . ورغم أن هذين النوعين يمدان جذورهما في نفس الميدان في التوثيق فان المؤلفات الصوفية تحتفظ بصفاتها المميزة . فهي لا تدل

فقط على جهد فكري بناء بل تبرهن أيضاً عن إيمان وإرادة تبشيرية تتميزان بالعطاء الشعري .

لمتابعة تطورها لا بد لنا من وضع جدولها الزمني ومقابلة المعطيات فيما بينها والتحقق من صحتها بواسطة ملفات خارجية ومقارنتها مع الأحداث كما قدمت لنا في السيرة الذاتية المغلفة بالرومنسية لويس لامبير. ولن نأخذ الا بالنقاط الأساسية الضرورية لهذا البرهان الذي يظهر جلياً خلال المقارنة الأولى بين التواريخ . فقد دخل بلزاك الى ثانوية فاندوم عام ١٨٠٧ وهو في الثامنة من العمر وخرج منها عام ١٨١٣ وهو في الرابعة عشرة من عمره وقبل أن يكمل دراسة الصف الرابع التكميلي أما لويس لامبير فقد دخل الى هذا المعهد عام ١٨١١ وهو في الحادية عشرة من عمره بعد أن باشر دراسته لدى عمه كاهن البحر وتخرج منه في منتصف عام ١٨١٨ بعد أن بلغ الثامنة عشرة من عمره وأتم دراسة الفلسفة . وقد تزود بالمعرفة والثقافة التي تجعل مقبولاً نشاطه الفكري الخلاق المبكر الذي برز في دراسة وتحليل الظواهر العجيبة الجارية في نفسه ليأخذ منها الاستنتاجات ويصين القوانين . والجدير بالذكر أن غالبية هذه التجارب قد وقعت بعد عام ١٨١٣ كذلك لتقبل بدعوة بلزاك ونأخذ بشهادة برشو دو بنوين (Barchou de Penhoën) رفيقه القديم وجاره في عبر النوم : « لقد كان مهتماً ومشغولاً مثلي تماماً بالقضايا الماورائية ، وغالباً ما كان يهذي معي حول الله وحولنا

وحول الطبيعة. « ولنتعبر دليلاً على قلقه الديني الاعتراض الذي وجهه الى مرشد المعهد قبل عدة أشهر من تناوله القربان قائلاً:

« اذا كان الله هو مصدر كافة الأمور فكيف نهر وجود السوء في هذا العالم؟ » ونحمل دليلاً على اندفاعه الصوفي وإيمانه عند تقديمه القربان وفضوله الذي يدفعه الى القراءة سراً، والاطلاع على آباء الكنيسة وأعمال الشهداء. ويتوجب علينا أن نلاحظ أن هذه الفردية قد تولدت عن الخيال والذكاء ذلك أن الطفل يريد أن يجدد في أعماقه صبر المعذبين أثناء ألمهم ، فهو يعتقد أن هذه الشجاعة تتعلق بالطباع الشخصية ويود أن يكشف وسيلة البطولة فيقوم في خياله بأعمال عظيمة بعد أن اقتنع في أعماقه بأنه واحد من هؤلاء الأولاد المشهورين مثل ————— بيك دولا ميراندول (Pic de la Mirandole) وياسكال (Pascal) اللذين يقرأ مغامراتهم وأعمالهم المحمّدة بنهم. وتبدو لنا هذه العناصر قابلة للتحقق فيما خص الصوفية لدى الطالب الصغير.

قد لا ترضينا كل هذه البراهين الا أن فيليكس دافين (Félix Davin) يكتفي بها ويأخذها حجة ليبرهن على مدى حداثة أصل النظام الفيزيائي الذي دارت حوله كل أفكار بلزك في نفسه ، وفي تجاربه الأولى. ذلك أنه في عام ١٨١٣ بعد مغادرة هونوريه المدرسة وعودته الى كنف عائلته بدأ بالاطلاع على مؤلفات سويدنبرغ وخصوصاً سان مارتين (Saint Martin) وقد بتنا

نعرف كم يدين هذا الفضول المستحدث الى مكتبة الأم بعد أن رأينا محاولات الأولى الملونة بالسحر والعلوم الخفية مثل فالتورن ١٨١٦ ، جان لابال (Jane la Pâle) (١٨٢٢) وثيقة الصلاة - ١٨٢٤ التي يبدو فيها نفوذ انسان الرغبة جلياً. وتبدو هذه الوثيقة وكأنها الفصل الأول في تاريخ الكنيسة البدائي الذي أراد لويس لامبير وصفه بتفسير استقرار عدد الشهداء وردده الى أسباب فيزيولوجية. كذلك نجد أن الرسائل التي وجهها لويس لامبير الى عمه الكاهن لوفيفر (Lefevre) لمدة ثلاث سنوات خلال دراسته العليا في باريس تدل بدقة على أفكار بلزاك فقد اتبع الاثنان دروس السوربون ومعهد فرنسا ومتحف العلوم الطبيعية ومعهد القانون في نفس الفترة كما يستدل على ذلك من الملاحظات الفلسفية (١٨١٨). وقد بلغ هذا البحث نهايته وتطوره الكامل في الفصل الثامن من سيرافيتا المسمى الطريق الذي يقود الى الله الذي أشار اليه بلزاك وعينه على أنه بحث الصلاة. وقد حكى لنا في لويس لامبير تاريخه السابق وتطور أفكاره الصوفية حتى عام ١٨٣٢ وظهور الطبعة الأولى من لويس لامبير وليس فقط خلال مرحلة دراسته في فاندوم وسرد علينا تطور أفكاره الصوفية حتى عام ١٨٣٣ حين ظهرت الطبعة الثانية المضخمة والمسماة تاريخ لويس لامبير الفكري ، وحتى عام ١٨٣٥ حين ضم هذا النص المنقح والموسع (رسائل لويس لامبير) الى الكتاب الصوفي ، حتى عام ١٨٤٦ موعد النشرة النهائية التي سبقها نشرات كثيرة أدخلت عليها تعديلات مستمرة. وقد أثرت

البيولوجيا التي ظهر المؤلف فيها عبر لويس لامبير وسيرافيتا بالمعلومات التي جمعت من الأساطير حول الموضوع الذي شغل بلزك طوال حياته .

لم تتوقف قضية المصير الانساني عن جذب اهتمام بلزك ، وتداخلت في نشاطاته كإنسان وكاتب . وتدلل الرسالة الموجهة الى شارل نوديه (Charles Nodier) حول مقاله المسمى : التقمص الانساني والبعث (١٨٣٢) على فضول فلسفي لا على قلق باسكال . ذلك أن أبطاله مثل أتيان ديروفيل (Etienne d'Herouville) الطفل الملعون ودانت المحظور وغودفروا (Godefroid) رفيقه الشاب ، لويس لامبير وسيرافيتا يتوقون الى السماء ويعتبرونها منطقة الصفاء النهائي أكثر منها موطن سعادة . خصوصاً وأن الغموض والظلام الماورائي يحيط بكافة المقدسات وكافة الأديان في هذه الدنيا البائدة ، لذا نجد أن كل هؤلاء الأشخاص يرددون عبارة دانت « أنا السر الذي يخفي على نفسي » ويحاولون اختراق اللغز ويودون رؤية الحقيقة فتبلغ تطلعاتهم حداً من العنف يدفعهم إلى طلب الموت للاقتراب من المنية وقد حاول غودفروا (Godefroid) أن ينهي حياته بيده ليبلغ بسرعة أكبر منطقة الضياء . وراودت لويس لامبير فكرة بة بعض أعضائه بنفسه .

يتوجب علينا قبل أن نحاول تفسير الأمور بشكل مثير أو : للآمال أن نعطي صدق بلزك حقه . فقد رغب في أن يفسر مصيره فاستخدم لويس لامبير واعتبره واسطة نشر من خلالها مع

التي رأها مفيدة لكل الناس . وعلينا الا ننسى أنه كان يفضل لويس لامبير وسيرافيتا على كل مؤلفاته . فقد أسر للسيدة هانسكا « يمكننا أن نصنع الأب غوريو (le Père Goriot) يوماً ولكن من المستحيل أن نصنع أكثر من سيرافيتا واحدة في حياتنا . كذلك قال « إنها كتب (أي لويس لامبير وسيرافيتا) أضعها لنفسي ولبعض القلة . » ويتابع قوله « أعرف تماماً الأفكار الواجب الأخذ بها والتعبير عنها عندما أود وضع كتاب للجميع .. » . وإتنا لتساءل هل تكشف هذه الجملة الصغيرة « أضعها لنفسي ولبعض القلة » عن سر المطلاع ؟ فقد برهن روبر أمادو (Robert Amadou) ان بلزك كان ملماً بعمق بأفكار سان مارتين وإن لم يكن بوسعنا القول بتدرج شعائري حقيقي .

تعود أصول « الفلسفة الشعوذية » التي يستند اليها بلزك الى المسيحية الأولى وتمتد عبرها الى علوم الأساطير الشرقية البعيدة . فقد كان يسوع نفسه أحد كبار المطلاعين على الخفايا وأخذ عن التقاليد الموسوية المتولدة عن التقاليد المصرية أسرار عظمته وقدرته على صنع المعجزات ، هذه الأسرار التي نقلها الى الرسل وخصوصاً يوحنا المعمدان « فالرؤيا هي نشوة مكتوبة وذهول مخطوط » . والجدير بالذكر أن هذا المذهب الذي يشمل « مجموع الأسرار والالهام الذي حصل منذ بداية العالم » قد علم علناً في جامعة باريس في القرن الثاني عشر . وقد انتقل « بغموض » الى السيدة غيون (Guyon) وفينلون (Fénelon) ، ليصل أخيراً الى النبي السويدي سويدنبرغ (Swedenberg) ورفيقه القديس مارتان

(Saint Martin) «الفيلسوف المجهول». لقد حاول
 سويدنبرغ أن يعيد كنيسة روما التي اضطهدت الكنيسة الداخلية
 وعقدت الديانات المسيحية بالطقوس الشكلية الى بساطتها الأولى
 فخفض الى حد بعيد ممارسة طقوس العبادة وحظر وساطة جماعة
 الاكليروس ولم يشك بلزك في عام ١٨٣٤ أن سويدنبرغ سيتتصر.
 قال شك يملأ قلب فرنسا والكاثوليكية تفقد السيطرة المعنوية على العالم
 يعد أن فقدت قيادته السياسية. ولا شك أن روما الكاثوليكية تحتاج
 في سقوطها الى نفس الوقت الذي تطلبه سقوط روما الوثنية.
 أي شكل سيتخذ الشعور الديني؟ ما هو التعبير الجديد عنه؟ الجواب
 هو سر المستقبل (مقدمة الكتاب المتصوف).

لقد كان لويس لامبير جهداً علمياً لتوحيد كافة أشكال وكل قوى
 الطبيعة. وسيرافيتا هي الانجاز الذي يرنو إلى
 تحقيق التكامل بين الفكر والوحدة بواسطة جهاز خفي. وقد
 اعتمد المؤلفان على مبدأ واحد هو الترابط الكامل بين الحيا والروح:
 وتبين هذا الأمر يومياً ملاحظات الفيزيائيين التي تزداد دقة وتنوع.
 وهي تحضر لعلم الاكتشافات المثيرة. ولا بد من القول أن بلزك قد
 جهد لإعطاء حونة للمظاهر الغريبة والهبات الخارقة التي يعتر بها
 ملهمين من أصحاب الرؤى. فقد اراد إحلال العلمية مكان العلوم
 لسحرية الخفية ليبرهن أولاً ما يعتبره العامة امتيازاً وخاصية رائعة وليعم
 مارستها لدى التابعين. وقد أوضح بلزك بالفعل النظرية في رسالته الى
 مارول نوديه حول مقاله المسمى التقمص الانساني والبعث (١٨٣٢).

فهذه الرسالة تشكل دراسة للمعتقدات والميول الصوفية-العلمية. ذلك أن الانسان يملك «قدرات كمول» وقدرات ما زالت مجهولة، لا تحمل اسماً ولا يمكن مراقبتها أو قدرات منسية أو مفقودة أو ضامرة هزيلة. وهذه القدرات وحدها هي التي تفسر مقاومة الشهداء المسيحيين الأول لأفظع أنواع التعذيب. ذلك أن فكرة الايمان تقضي على فكرة الألم لديهم فالكنيسة الأولى هي عهد الفكر. وقد اعتمد بلزاك حقاً على رجل بوفون (Buffon) المزدوج : فالرجل الداخلي والرجل الخارجي في تضاد مستمر. والتيار المغناطيسي الذي يخرج من الدماغ والمسمى بالارادة، هو قوة لم تعرف أولياتها ولم تقيم قدراتها ولم يدرس استعمالها وتطبيقها. كذلك يعتبر الاتصال بالادراك، ووضوح الرؤيا، والروبصة والذهول والرؤى والاستحواذ الشيطاني والشفاء ظواهر ناتجة ومتولدة عن انعكاس تيار مغنطيسي؛ وهو يوضح بهذا المعجزات التي حققها يسوع أو رسوله سواء باللمس أو عن بعد. وهو يعتقد أن علماء الفيزياء سيبلغون نتائج مدهشة بتحديدهم العلاقات الكمية والنوعية بين الفكر والارادة وسيجدون الوسائل التي توفر لهم إمكانية التوغل في المنطقة الدقيقة من الفكر والمشاعر. حتى يتوصل الإنسان المدرب إلى الاتصال بالفكر مع الآخرين وإلى قراءة الأدمغة دون حاجة للرجوع إلى الحواس الجسدية.

بم يحسن كمال الحواس هذا العلاقات بين الانسان والاله؟ انه الهدف الذي يرمي اليه بلزاك: «فلا بد من اعطاء أجنحة من أجل النفاذ الى الحرم الذي يختبئ فيه الله عن عيوننا» (المحظورون). فقد

حان الوقت لبناء الديانات على الكائن الداخلي الذي وصفه الجلال الأعظم فينا. انها غريزة شبيهة بتلك التي تملكها الحيوانات وان كانت أعمق وأسمى بموضوعها. لقد أشار بلزاك الى بداية الحدس الذي يبسط المعرفة ويصل الذات الفردية باصداء الكلمات الالهية أي فكر الله أو وعيه لذاته.

ذلك أن «الكلمة تحرك العالم» و«الايان هو الشعور بالله ولا بد من الاحساس بالله». ويرجع هذا اليقين القائم على التجربة على كافة الدلائل التي قدمها الفلاسفة. انه الايمان اللاهوتي الفلسفي الذي يتصل بواسطته الخلق بكامله بصورة مباشرة مع الأفلاك العليا. و«كل شيء يتحدث وينصت فوق هذه الأرض الفانية» ويساهم في هذا الاتصال البدائي مع الخالق. الحصة، والضفدع والزهرة والفكرة، وهي زهرة روحية والغيوم تتصل مع الكلمة الالهية وفق صيغة من الأخوة. وتتحرك دون توقف لتحقيق الوحدة الكبرى. وقد بلغت الانسانية المتمثلة في الخنثى سيرافيتوس - سيرافيتا (Séraphitus-Seraphita) الى المرحلة الملائكية والتجرد عن الجسد وفق نظرية سويدنبرغ (Swedenberg) وهي تحقق بتحررها التدريجي من المادة تحولاتها النفسية الروحية الاخيرة التي تعدها للتكامل مع المبدأ الشامل. وكلما اقتربت من هذا الانتصار عبر التجارب الأرضية والترفع كلما خفت طبيعتها وتخلصت من أثقالتها فتصبح قادرة على القيام بكافة الأعمال (preternaturels) الطبيعية الخارقة التي عددناها. ويتم هذا التسامي بفضل الطاقة الطبيعية المتوفرة لدى كل فرد.

وتنتقل الفكرة من فلك إلى فلك اعلى حتى تبلغ نهاية مصيرها
وهنا تتم معرفة فحوى الفكرة الأولى التي تفرعت ونجمت عنها بقية
الافكار. ويرمز تدرج يعقوب (Jacob) وصراعه مع الملاك إلى
الجهود الارادية. ولا شك أن فكرة بلزك الاساسية تتلخص في
احدى البدييات التي اعلنها لويس لامبير (Louis Lambert) «ان
الانسان بتوحيده بين جسده والفكرة البسيطة يستطيع أن يبلغ الحقيقة
في نفسه» وهكذا نجد أن الملهم الصغير قد بدأ بانتقاد الحقائق المسيحية
بصورة سلبية. وعرض عن طريق البيئات فرائض حول مادية الفكر
وقوته المغنطيسية.

تتقدم سيرافينا في ميدان المعرفة. وتدفع في الفصل المسمى
بنجوم المحرمات بيكر (Becker) الراعي المشكك إلى الاعتراف
بمعجز العقل عن النفاذ إلى اللغز الذي يحيط بالعالم وحل قضايا
المصير. وتدرس وجود الله الذي تنص عليه فكرة اللانهاية التي ترافق
الانسان وتلاحقه. وتجمع بحمى عنيفة تنفيذ النظريات التقليدية
والتناقضات الناتجة عنها التي اخذ بها او دحضها الماديون والروحيون.
وحين تعتقد انها ردت على كافة حججهم تبدأ بعرض نظرياتها
مستندة إلى يقينها القائم على التجربة ومعرفة الاله. اني اؤمن بالله
لأنني شعرت به. آه للمهزلة ! ألا تبدأ كافة العلوم باعلان مبدأ؟
العلوم الفيزيائية التي تعترف بوجود قوة متميزة عن الاجسام، قوة
تعطي هذه الاجسام قدرتها على الحركة لا تعرف شيئاً عن طبيعة
هذه الحركة وتكتفي بالحكم على آثارها. اذن كيف يمكن لذكائنا ان

يحد في هذه الطرق وسيلة المعرفة حين يتعلق الأمر بالله بوجوده ويجوهره؟ ان علة الايمان شخصية اما موضوعها فغير قابل للبرهان . وهو يعني ببعده وعمق يتناسبان مع حرارة ايمان كل شخص .

ويدلنا الفصل الثامن من سيرافيتا واسمه الطريق الموصل إلى الله (Le chemin pour aller à Dieu) على الوسيلة الوحيدة التي نملكها لبلوغ مرحلة الملائكية : انها الصلاة . ويصف لنا بلزك مطولاً كمال وروعة الرؤى التي يعتقد انه قد حصل عليها مكافأة على ايمانه اللاهوتي الفلسفي . وقد صرخ قائلاً من يفهمكم عظمة وروعة وقوة الصلاة؟ وتدل هذه العبارة على سمو روح اذهلها التأمل : فهي تذوق بيقين مبين « اكثر الملذات طيبة » « واعذبها » . « ملذات النشوة الالهية » . ونحن نعرف جيداً أن المؤلف قد عبر عن هذه الرغبات الملتهبة ، وهذه التطلعات وهذه الرؤى الالهية بكلمات وعبارات مأخوذة بصورة حرفية عن مؤلف صديقه القديس مارتين (Saint Martin) رجل الرغبة . وهذا يدفعنا إلى الشك بأن هذه الفورات والشطحات تجاوزت النطاق الادبي . ولكن هذا لا يمنع أن بعض القلوب الباحثة عن الله قد وصلت اليه بفضل . كما حصل للرسام الهولندي فركاد (Verkade) المتسمي إلى مجموعة نبيس (Nabis) فقد نقلته قراءة سيرافيتا إلى عالم خارق ودفعته على طريق التقوى والورع الذي قاده إلى دير بيرون (Beuron) حيث قدم نذره . والجلدير بالذكر أن كافة الاديان « مؤثرة » وهي تقود جميعها إلى الغاية النهائية . فقد كان سان مارتين يرى أن تأملات الالهام الصوفي تسكب في الروح نور

الحب الابدي وزيت الحبور الداخلي : وكان بلزك يحدد آثار هذه الديانة بقوله : «ان هذا المذهب يعطي مفتاح العالم الأزلي ويفسر الوجود بتحويلات تقود الانسان إلى مصير رائع ويحرر الواجب من تدرجه القانوني ويسلط على آلام الحياة نعومة الصاحبية التي لا تزول ويأمر بالترفع عن الآلام باضفاء لا ادري اي عاطفة امومة على الملاك الذي نحمله إلى السماء . انها الرواقية وقد بات لها مستقبلها . ولا شك ان الصلاة المستمرة والحب الصافي يشكلان عناصر هذا الايمان النابع عن كاثوليكية الكنيسة الرومانية والمهياً لاعتناق مسيحية الكنيسة الأولى» (الزنبق في الوادي (Le lys dans la vallée) . ولكن لا شيء يمنع من التمسك بالكاثوليكية والتفكير بتعاليمها كما فعلت هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf) . وسنرى فيما بعد اهمية هذه الحرية في الخيار .

* * *

من الضروري معرفة اصل وطبيعة هذه الأفكار كما يعرضها بلزك في لويس لامبير (Louis Lambert) اذا اردنا فهم دورها الأدبي وبعد الرواية الفلسفي . لقد قامت هذه المبادئ على مادية الفكر والارادة وعلى جوهرهما . فالأفكار هي انبعاث ، وتحويلات رائعة في الجواهر الانساني «والجواهر الكهربائي» «والجواهر الفيزيائي» التي يتشكل منها الكائن المحرك أي «الكائن الداخلي في اعماقنا» الذي يجمع هذه الماهية بتقلصه ثم يقذفها بحركة ثانية إلى الخارج او يعهد بها «إلى اجسام مادية» : وتختلف هذه الوفرة من البيئات الفكرة

وتتركها في الاماكن غير المعروفة من الأعضاء حيث تتولد : ولا يعطينا هذا الفيض من الصور أي تحديد لطبيعة « تلك التيارات ». ويقول بلزك لمن يمكن أن ننسب - ان لم ننسب اليه - هذه القوة الخفية التي تتصب في النظرات لتصق العقبات بأمر من العقل ؟ والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو هل أن الروائي يصف نفسه وقد عصفت الافكار في داخله . كان يغمض عينيه فتراكض اليه فهل كانت تمنح نفسها له غامضة ام واضحة . هل كان يفتح عينيه ؟ فتطير جاعات في الهواء حوله . خصوصاً وان « اصغر التفاصيل وادقها » يؤكد صحة الفكرة بتفسيره الفوري لها . وكان هذا التمرين يتكرر بنسبة مرتفعة مع بلزك . فنحن نعرف انه كان يذهب بعيداً في مراقبته للأشياء وينطلق من الوصف بكل ظلال فوارقه ليصل إلى ادق اموره . كان يلاحق الفكرة ويطلع على ادق دلائلها . وتحول كافة الاشياء الى افكار لديه لأنه يعتبر الفهم هو الرؤية المسبقة « باختصار العلل » هو الرسم هو التفكير . فالفكرة تحرك الشيء المادي هذا الشيء الذي يثير الأفكار بدوره . فهو يشكل ارتباطاً لها في الفضاء . وتملك هذه الافكار بذاتها وبالآثار التي تتركها في الرؤية الداخلية حياة خاصة بها . انها تشكل فينا نظاماً متكاملأ شبيهاً بمملكة الطبيعة - نوعاً من الازهار ... « انها شبيهة بالنجوم اللامتناهية التي لا تحصى . وهي تعيش ايضاً في الخارج . تطاردنا وتلاحقنا وتعمل احياناً بصورة منفردة و احياناً بصورة جماعية ». وتظهر المغامرات المديرة للفكرة السعيدة ١٨٣٤

Les aventures administratives d'une idée heureuse

التي رويت بحمی شیطانية هازئة
احدى الافكار وقد ارتفعت وتعاضمت وابتلعت واكلت الرجال
والنساء والاطفال والآمال والثروات عبر العصور. ويعتبر الروائي الحالم
بطبعه أن الافكار تتحول إلى عقب عطور وألوان واصوات واشكال.
ويطلق الفنان اثناء تأمله عقلانيات وراء الفكرة تصقلها كحجر كريم
تنشر كل صفحة من صفحاته اشعاعات لماعة. ومن المفيد الملاحظة
أن الكردينال مرسييه (Mercier) الفيلسوف الكبير قد رن «نجاح
بلزك إلى خصوبة مخيلته». التي شجعته وغذتها تصورات الفكرة
العاطفية (علم النفس المجلد الثالث ص ١٧١ الكان)
(Psychologie TIII, 171 Alcan) ولتأخذ امثلة على ذلك أن
«شهوة الراعي بيروتو» (Birotteau) تدفع إلى اعتباره شاباً يتأمل
باعجاب المرأة التي سيحب : كعاشق يودع عشيقته الأولى بجنان
او كعجوز يلقي النظرة الاخيرة على مزروعاته التي عني بها بنفسه.

حين تنتقل الآنسة كامار (Melle Gamard) من الانتقام
السري إلى العداء المفضوح للراعي بيروتو «لم يشك هذا الأخير لحظة
واحدة انه عاش في ظل حقد سلط عليه نظراته وراقبه باستمرار». .
وسرعان ما يتخيل القارئ طائراً بجنحاً صغيراً وقد افتتن وسحر بكاسر
جارج. وتبدأ الضحية تقارن الآنسة غامار (Gamard) بالكواسر
فتلمح في كل لحظة اصابع الآنسة المعكوفة والمحددة الجاهزة دائماً
لتغرز في قلبه. وتمد الاشكال اجنحتها وتمدد جوانبها وتدور في حقل
الرؤية وتملاه بالدوائر المهتدة : وهكذا ينتهي التطور. كانت العانس

فرحة بحياتها التي يغذيها شعور مليء بالانفعالات الشعور بالانتقام فكانت تسعد في التحليق حول الكاهن والتنقل عليه كما يحلق الطائر الكاسر حول ضحيته قبل افتراسها. ولا تهمل أي مرحلة من مراحل الصيد: «فقد وضعت الآنسة منذ عهد بعيد خطة لم يكن بوسع الكاهن المذهول تبينها، خطة سرعان ما باشرت بتطبيقها». من لا يتذكر ممن راقبها، مناورات الصقر وقد ضيق من حلقات طيرانه قبل الانقراض على عصفور جمده الرعب في الارض؟ بتوقفنا لدى اهم شخصيات الكوميديا الانسانية تتضاعف لدينا امثلة الانعكاس التي توسع القوام والحركات وتمدها حتى النجوم أن لم ترمها في اعماق وغياب اللجج.

انه العمل الرهيب الذي يدور تحت سقف الأب غرانديه (le Père Grandet) ، انها مأساة بورجوازية لا سم فيها ولا خنجر، مأساة لا يراق فيها الدم ولكنها تبدو على ابطالها اقسى من كافة المآسي التي ارتكبت في عائلة اتريد (Atrides) الشهيرة. ان الآنسة اسكرينيون (Mellè d'Escrignon هي التي تخلف اخاها ومذاهبه ومعتقداته المهذمة». تفهموا خيبة املمها لرؤية ابن شقيقها فيكتورنيان (Victurnien) الماركيز يعقد زواجا غير متكافئ مع وريثة بورجوازية. وتبدو في حزنها «اعظم من اي وقت مضى» شبيهة «بماريوس وقد وقف على اطلال قرطاجة» انها بييريت لورين (Pierrette Lorrain) التعيسة ويكفي لاعطاء بعد كبير لقصتها التذكير بأن بياتريكس سانسي (Béatrix Censi) قد

عذبت لأنها نقلت الحدث في العصور الوسطى في روما. عذبت بنفس الملاحقات والترمت والأهواء المقززة التي ادت ببيريت إلى القبر. انها بون (Pons) الساخر الذي يعمد لاشباع حبه للروائع القديمة إلى اعمال تخدم السفراء في تحديد ابطال التحالفات. «انها كاموزو» (Camusot) القاضي الذي يبحث كامرأة عصفت بقلها الغيرة عن كافة الاحتمالات لاشباع حبه للحقيقة ، وينقب عنها بمنحجر الشك كما يشق الكاهن بطن ضحيته».

غالباً ما تلجأ الفكرة إلى الصورة التي تلون بطل المأساة الجارية فتعطيه قناعاً جديداً وترفع من شأنه وتفضح للعيون بتنوع مراحل الدور ألوان الفكر وقضايا المشاعر. وتخرج من هذه التطورات الشاعرية شخصية اقوى ارفع احساساً ، شخصية تثرى بالتعبير وبالظلال الملونة. وهكذا يكشف لنا بلزك عن اهوائه الفكرية انه يرغب في انفاذ مادة ادراكه دون أن يتوصل إلى ذلك. فالمادة تتولد بصورة اكثر وفرة من مخيلته . وقد دلنا الروائي بقوله : خلق الفكرة واضفاء الشاعرية عليها ، واغناء الشعر بالافكار وتعظيمها على القدرتين اللتين تجذبان كقطبين مغنطيسيين العناصر التي تغذي فكرة الخلاق.

لا شيء يستدعينا هنا للانتقاد الفلسفي للنظام الملهم ولا للقضايا النفسية الفيزيولوجية. ولناخذ بعض الأحكام التي صاغها بلزك بنفسه. لقد أكد في لويس لامبير (Louis Lambert) ثم في المقدمة (Avant-propos) عام ١٨٤٢ أن فرضياته وحول العالم

الأخلاقي الجديد» لا يمكن قط أن «تؤثر على العلاقات الأكيدة والضرورية القائمة بين العالم والله» ولا «ان تهز المبادئ الكاثوليكية». ويتناقض هذا الادعاء مع دور الرسول البسيط الذي منحه يسوع المسيح وتفسيره المغنطيسي الصرف لمعجزاته. فقد حرم صانع هذه الخوارق من ألوهيته ومن عظمته، بحظه الرحمة الراقعة والمقدسة فالكتاب لا يحتاج اليها في خوارقه الجلدية.

كانت الفكرة الاساسية ليسوع المسيح في الفلاندر (Jésus Christ en Flandre) توفر وسيلة مصالحة وسط هذه الآراء المتناقضة. فهذه الرواية خيالية في جزئها الأول، صوفية في جزئها الثاني وقد احتفظ كل من الجزئين بمعناه. فكان الثاني خفياً وكان الأول فلسفياً. لقد صدر الجزء الأول في نسختين الصفر (Zéro) ورقصة الحجارة (la danse des Pierres). وتدل هذه العناوين على رمز ناطق. فكنيسة فرنسا كانت تساوي عام ١٨٣٠ الصفر. إنها امرأة عجوز غرقت في الجدول، وقد وصفها أحد المارة «بانها مستديرة كالقلنسوة.. انها سوداء وفارغة». لقد بدت الكنيسة المؤسسة الالهية التي تشكل وفق قول مؤسسها نحد مستمر للقوى الضارة على مر العصور منارة. لقد تحولت الى فكرة، كما كانت قبل تشكلها بسبب العادات والاصرحة. لقد كانت «الكمال الأول» أي قوة متحركة قوة فعالة أبطل مفعولها، ففكرة الشك والريبة تسيطر على فكرة الايمان وتستعيد رقصة الحجارة (la danse des Pierres) نفس الفكرة. فبعد سقوط شارل العاشر يشهد بلزاك

إحتفال يوم السبت الليلي في إحدى الكنائس. فبرى أن كافة أجزاء
المبنى تصدع وتبدأ بالتراقص على أصداء الأرغن التي تعزف.
ويشكل هذا الحلم «رؤى مؤثرة للأفكار الدينية وهي تفترس بعضها
البعض وتتهوى فوق بعضها البعض وقد هدمتها الريبة والجحود التي
تشكل بدورها أفكاراً». ولا يعد بوسعنا أن نفاجأ برؤية الأفكار «هذه
القوى الحية وقد انتصبت ضد بعضها البعض وتصارعت فيما بينها.
والجدير بالذكر ان بعضها يتلف لافتقاره الى القوة أو الغذاء». ولكنه
نادراً ما يموت. وبين الجزء الثالث من يسوع المسيح في الفلاندر كم
هي معمرة. لقد هجرت النفوس المتطلعة الى تقدم المعرفة والكمال
الكاثوليكية فيما بقي البسطاء «والمنبوذون من المجتمع وهؤلاء المطرودون
من جامعاتها ومدارسها اوفياء لمعتقداتهم وحافظوا مع صفاتهم الروحي
على قوة هذا الايمان الذي ينقذهم في الوقت الذي يرى فيه الأناس
المتفوقون الفخورون بقدراتهم الكبيرة أوجاعهم تزداد مع تزايد
خيلائهم وآلامهم تتعاضم مع تعاضم إلهامهم». (المقدمة الى الدراسات
الفلسفية) (Introduction aux études Philosophiques)

وما زالت فكرة الايمان تملك احتياطها وتتطلع الى تحقيق روائع
حضارية. ذلك أن المؤلف بدلاً من أن يتوقف عند استتاجه المتشائم
يتبنى موقف المطلعين. فهو يشجع الشعب على اعتناق الكاثوليكية في
نفس الوقت الذي يحاول فيه نشر عقيدة الوحي التي تشكل بالنسبة

إليه كل الحقيقة. فالباطنية المارتينية والسويدنبرغية تغذي الكائن الكامن في أعماقه وتجعله يحيا.

أما فيما يخص المادية الرومنسية التي يملأ بها لوحاته من ديكور إلهي ومواكب ملائكية وتناغم موسيقي بين الكواكب ومزاهر ذهبية وقيثارات وتراتيل وأنوار سماوية إلخ.. فقد اعترف بنفسه لنوديه (Nadier) أنها تشكل «أوهاماً يجب أن يغذي نفسه بها وأنه يبتني نظرياته النفسية الفيزيولوجية منفصلة. إنها رؤى شاعرية يضفي عليها حساً انتشائياً». وقد عمد في سيرافيتا الى وضع التأمل الديني والرؤى الفنية وأحلام النوم في مستوى واحد، فهي رغم اختلافها في وسائلها إلا أنها تؤدي إلى نفس الشيء السامي، إلى الكشف الذاتي عن هذه الخفايا العظيمة التي يلتقي فيها الفكر بالمطلق.

ويمكننا أن نتساءل هل كان بلزاك يؤمن باله خاص ؟ ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الخنثى سيرافيتا يتزع غطاءه الارضي ويقرب من ضفة السماء على شكل ملاك تحول الى «نقطة لهب» وبدأ يطلق هذه العبارة: «أيها الخالد، أيها الخالد، أيها الخالد!» فيمتلك في هذه اللحظة اللانهاية؛ هل تدل هذه العبارة على الجوهر الوحيد الذي يتحول إليه كل كائن حي سواء كان مادياً أم روحياً، ليتكامل في حالته الأولى مع الروح الشاملة، النقطة التي انبعث منها؟ إلا أن بلزاك كان قد أنكر مراراً إيمانه بوحدة الوجود، ورغم هذا فان أفكاره تبقى مختلطة حول هذه النقطة كأفكار بعض المؤلفين

المعاصرين مثل لامرتين (Lamartine) وجورج ساند (George Sand) وموسيه (Musset).

لقد فتحت سيرافيتا أمام الجيل الرومنسي ، الذي ألقى فريسة للأوهام وخابت آماله في بحثه عن السعادة الوحيدة ، طريقاً يرتفع الى الرجاء الإلهي لدفعه إلى التخلص من كآبته . وتعتبر هذه الأوديسة اللاهوتية مع لويس لامبير (Louis Lambert) أساس الأفلاطونية الحديثة . فقد درج إسم مؤلفها بلوتين في قائمة المؤلفين التي سمح لامبير لنفسه بقراءتهم . والشبه كبير بينها سواء فيما خص الله أو الكلمة أو انبعث الروح الفردية وعودتها الى الروح الشاملة ومبادئ الفضيلة والصلاة . ورغم بعض المظاهر فهناك بعض الخلافات الأساسية التي تفصل هذه الفلسفة وتميزها عن العقيدة المسيحية وهذا الأمر لا يقتصر على علم لاهوت الثالث بل يتجاوزه الى المذهب الأخلاقي والصوفي الذي يؤدي الى الإتحاد مع الله ... ويعتبر هذا الإتحاد ثمرة التجرد ، الفكري لا النعمة التي لا «تملك فيه أية حصة» . كذلك الأمر بالنسبة لجهود الارادة ، لأن الفضيلة ليست إلا تفحص الروح لعنصر غريب هو المادة . وهذا أمر يتم بصورة شبه آلية .

في نهاية فيزيولوجية الزواج *la Physiologie du mariage* يدعي مهاجر عجوز أنه أتى من ألمانيا بمذهب المسيحية الشاعر والاستعلافي . ولنفهم من هذا أن فكر بلزاك قد تأثر بهذا التيار اللاهوتي الفلسفي فقد درس بعض مؤلفات يعقوب بوهم

(Jacob Boehme) وإقتبس الكثير من موجز مؤلفات سويدنبرغ (l'Abrégé des œuvres de Swedenberg) وأخذ عن كتابين لسان مارتان رجل الرغبة (l'homme de désir) ووزارة الرجل الروح (Ministère de l'homme-Esprit) واطلع على سحابة فوق المقدسات أو شيء لا تعرف فلسفتنا المعاصرة الأناثية بوجوده لايكارتسهوزن (Eckartshausen). كذلك خضع لتأثرات معاصرة أخرى مرتبطة باللاهوت الفلسفي الآتي من المانيا: السيدة ستيل (Mme Staël)، الكاهن انسيون (Ancillon)، بادر (Baader) دون ذكر الطبيعيين والفلاسفة. والسؤال الآن هل اكتفى بلزك بتعميم نظام الملهمين؟ رغم شغفه بأسلافه حاول بلزك الحكم على حيوهم « بالمنهجية الديكارتية » وتوضيح نظرياتهم الضبابية « وان يدخل ضمن حدود المنطق هذا السيل من العبارات الغاضبة ». وكما حاول التوفيق بين اللاهوت الفلسفي والكاثوليكية كذلك عمل على الجمع بين الالهام والحدرية العلمية فهذه نقطة وُصُولهم. لقد لاحظنا غالباً التناقض القائم بين الصوفية الخفية ومادية الفلاسفة أعضاء أجمع العلمية الذين يحظرون كل تدخل غامض في نظام الطبيعة بينما تحفل المارتيئية بهذه الأمور. وقد اكتسبت لغة المراسلات التي تربط بين كافة الكائنات انطلاقاً من ذرة الرمل إلى الكوكب نوعاً من القوام والكثافة. لقد قبل بلزك بوجود استمرارية فيزيائية عبر كافة الكرات وقد تحدثنا عن هذه السلسلة من

العلل التي انتقدتها جوزيف دوميتير (Joseph de Maistre) . وهي تتوغل حتى العالم الماورائي بفضل كمال قدراتنا المتظر .

لقد أثر ما كان يدعو به بلزك بالصوفية بعمق على حياته ومؤلفاته . فقد كان هو الذي يميل بطبعه الى الافراح المحسوسة ، الشهوانية يسعد بالتحليق في أجواء الأثير ، وقد بقي رغم « انطلاقاته العظيمة » معادياً لممارسات العبادة الدقيقة .

لقد أعلن في ٢١ حزيران ١٨٤٠ رسمياً للسيدة هانسكا (Hanska) أن هذه هي ديانته ، وقال لها في ١٢ تموز ١٨٤٢ أنها تشكل أعماق فؤاده .. « أنت تعرفين تماماً حقيقة مذاهبي فانا لست بأرثوذكسي ولا أو من قط بالكنيسة الرومانية . واعتقد انه إذا ما كان من أمر بمثل جدارتها ، فهي التحولات الانسانية التي تدفع الكائن نحو مناطق مجهولة . فهذا قانون المخلوقات التي تقل عنا شأنًا ، لذا لا بد أن يكون قانون المخلوقات الاسمي درجة ، مذهب سويدنبرغ الذي يعتبر بالمفهوم المسيحي تكراراً لأفكار قديمة هو ديانتي مع ما أضفت من حجج حول الادراكية لله . لقد كان يفتش عن شيء مختلف فلم يجد لحماية آماله أكثر اماناً من العودة الى الكنيسة القديمة الذي غالباً ما رده إليها اعجابه وافتتانه ؛ كالصفيحة الذهبية الذي يحط بعد أن أتعبه تحليقه الطويل الجريء على الصليب الذهبي للجرس الذي عرفه ويحيطه بجناحيه .

لقد قدم بلزك قربانه الأول بعد ان اعترف في ١٤ آذار ١٨٥٠ في بولونيا خلال احتفال زواجه بالسيدة هانسا . وعند عودته

الى باريس أصر على استدعاء كاهن كنيسته وتحدث معه طويلاً ويقول الدكتور ناكار (Nacquart) «لقد أصبحت الديانة التعبير الأسمى عن الكون». وتناول العليل بيديه مسحة الموتى صباح يوم الأحد في ١٨ آب مشيراً إلى ادراكه لما يجري حوله. وقد غالبه الأجل في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف من ذلك المساء.

لم يكن بلزك يجد أي تناقض أو غضاضة في هذا الجمع بين الصوفية الخفية والكاثوليكية. بل أكثر من هذا كان يعتبر أن هذين الشكلين الدينيين متكاملين بصورة فعالة وضرورية. لقد كانت الصوفية تحمل مكان العقائد وتعطيا نوعاً من القيم والمفاهيم العلمية حول المغنطيسية وعلم النفس الفيزيولوجي والتطور. ولم تكن هذه العقيدة الأثرية تستبعد قط امكانية المساهمة في قانون الأخلاق الكاثوليكية الظاهري. وفي شعائره. وتعود تصريحات سويدنبرغ التي ذكرناها إلى نفس عهد تأليف أورسول ميروويه (Ursule Mirouët) التي ظهرت في آب أيلول ١٨٤٢. وقد عبرت هذه الرواية عن هذه الحالة النفسية واستغلت معطياتها. ونجد أن الروائي يستخدم شخصيات مثالية لينفخ فيها معتقداته فتنتقل هذه من حياته الى مؤلفاته. وتصبح الصوفية مادة فنية. وغالباً ما تختلط مع الخيال إلا أنها وإن كانت تهدف إلى تحقيق نفس الآثار الناجمة عن الخيال تتميز عنه بموضوعها الذي يتطرق إلى العلاقات بين الروح والرب أو مع مناطق المطلق بواسطة الأعمال الفاضلة. وحين يدخل بلزك

أحداثاً خارقة في العقدة الرومنسية فإن هذه الأحداث تتخذ بنظره قيمة مثبتة ومقنعة؛ فيما تتسم بنظرنا نحن بصهغة من الجدية والخطورة التي تعطي القصة طابعاً أعمق. ونأبى بتدقيقنا اعتبار هذه الوقائع المستغلة كوسائل درامية لتقوية وتأزيم المناورة وإعداد تطوراتها المحتملة وإن كنا نعرف أن بلزك كان يعتبرها ممكنة ويؤكد أنه قد شهد وقوع مثلها حقيقة ويدفعنا هذا الأمر إلى الالتزام بعفويته وتمسك بها للدخول في انقياد الأبطال.

ولا بد لنا من التذكير أن بلزك قد أكد في رسالته إلى نوديه (Nodier) (١٨٣٢) على الأحداث النفسيسة في (oneiro-critique)، وعلى «روبصة الكائن الداخلي» و«مظاهر النوم الغريبة» التي ينعدم فيها المكان والزمان. وقد جاءت أورسول ميروويه (Ursule Mirouet) بعد تسع سنوات لتكوّن الاستعمال الرومنسي لكافة هذه النظريات. لقد سرق مينوريه لوفروه (Minoret Levraut) ثم احرق وصية عمه الدكتور مينوريه (Minoret) التي يعطي فيها كافة أمواله لربيته اليتيمة. فيظهر الميت للفتاة عدّة مرات في منامها ويكشف لها عن أعمال مينوريه لوفروه (Minoret Levraut) الجرمية التي اساعته ويدلها على وسائل استعادة حقها. وتمتكن أورسول من هذا بفضل مساعدة الكاهن شابرون (Chaperon) تمثل أورسول الورع وترمز اليه. ويستمع الكاهن إلى ما تسره اليه برضى كامل دون أن يشك لحظة واحدة بصحة ظهور الميت لها والأوامر التي يعطيها من العالم الثاني. بل أكثر

من هذا يتخذ من كافة هذه الأمور حجة لدفع الجرم مينوريه لوفروه (Minoret Levrault) إلى التوبة وإصلاح الخطأ. وتلعب الصوفية الخفية دوراً كبيراً في الرواية.. وقد استخدمها بلزك ثانية في ابن العم بون (le Cousin Pons) (١٨٤٧) حيث عرض لنا آراءه حول التنبؤ والرؤى والظواهر المثبتة والحقيقة الناجمة عن العلوم الخفية. والحدير بالذكر أن نوديه قد ترك في سمارا (Smarra) مكاناً للخيال والغرابية كذلك فعلت جورج صاند (George Sand) في ليليا (Lelia). ونحن نعرف أن الرومنسيين كانوا شغوفين بهذا النوع من الآداب. وما يستحق الملاحظة في أورسول ميرويه (Ursule Mirouet) هو الجمع الحميم بين عاملين الأعمال الخارقة والكاثوليكية الصرفة. ويرمي تفسير هذه الظواهر إلى حل ما تسميه الكنيسة الكاثوليكية بالمعجزات بواسطة لعبة القوى الطبيعية غير المعروفة جيداً بعد أي ارادتنا واستمرار القدرات بعد الوفاة. ويجمع الكاهن شابرون (Chaperon) نموذج كمال الكهنوت والإيمان الكامل بين هذه الهبات السامية والعلم وانفتاح الأفق. وهو لا يتردد لحظة واحدة على التصديق بارادته الدينية على صحة هذه الظواهر الغريبة الخارقة. وهو يوضحها لاورسول بنظرية بلزك حول الأفكار هذه الكائنات التي تملك لذاتها حياة خاصة في العالم الروحي ، وهي ذات أشكال تعجز حواسنا الخارجية عن تلقفها وإن كانت حواسنا الداخلية تتحسسها حين تتوفر بعض الشروط ، لقد «احيطت» أورسول أثناء نومها بأفكار الدكتور وأفكار مينوريه لوفروه

(Minoret Levraut) المجرم . ورأت الأفعال التي تشكل هذه الأفكار جوهرها ذلك أن الزمان والمكان يتتفیان أثناء نومنا . ونجد أن هذه الأحداث تحمل الأزمة النهائية بعد أن حضرت لها وسببت الاضطرابات والبلبله والحوادث المفاجئة .

تشكل الصوفية الخفية أهم دوافع الكوميديا الانسانية فغالباً ما لجأ إليها الروائي في وضع العقدة والسماة ، فكم من الشخصيات قد ملكت مثل هنريت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf) وأورسول ميرووية (Ursule Mirouet) من قوى وملكات خارقة أو خضعت لتأثيراتها مثل الأم سيبو (Cibot) .

- ٣ -

الاستغلال الجمالي والرومنسي للكاثوليكية

ظهرت في شهر أيلول من العام ١٨٣١ رواية الكنيسة
 (l'Eglise) ضمن الروايات والحكايا الفلسفية بعد ان شهد بلزاك
 في الأيام التي سبقت الاحتفالات بـ ١٤ و ١٥ شباط الجماهير
 الهائجة تسرق كنيسة سان جيرمان لوكسروا
 (Saint Germain l'Auxerrois) وتنهب وتحرق قصر الاسقف.
 لقد شهد روائع الفن القديم تتمن وتبادا! لقد رأى الأثاث
 الاستهلاكي (الذي يعود إلى ما قبل عام ١٥٠٠) والمطبوعات النادرة
 تلقى في نهر السين. لقد أثارته مظاهر الوحشية في احتفالات يومي
 إثنين وثلاثاء المرفأ «عيد المجانين الجديد» ووصفها في رسالته عن
 باريس التي نشرت في السارق (le Voleur) يوم ١٨ شباط :
 «هذاما كانت عليه الكاثوليكية عام ١٨٣١..» ان لم تكن هذه الرؤيا
 الفظيعة السبب المؤثر في التقارب بين بلزاك والكنيسة فمن المؤكد انها
 تثبت النتيجة. وهذه النتيجة ألم يشر اليها في شهر أيلول من العام
 ١٨٣١ في رواية الكنيسة؟ «هذا هو الوضع الدقيق الذي رأيت فيه اروع
 وأعظم وأصدق وأكثر الأفكار الانسانية عطاء» وكانت هذه الفكرة
 قد بلغت ابعادها في فكر المفكر. ويستدعينا هذا الأمر إلى استرجاع
 نظرية بلزاك حول الأفكار ف «الفكرة تستفقدنا أحياناً بولادتها

الطويلة وتضئنا، تنمو وتثمر وتكبر مستقلة عنا بفضل الشباب وقد
ترينت بكل خبرات ومكتسبات الحياة الطويلة: وهي تجابه أشد
النظرات فضولاً تجذبها دون ان تثير فيها أي ملل. فتحصنها يولد
الإعجاب الذي تثيره المؤلفات التي أعد لها طويلاً لقد انفتحت كلمة
«كنيسة» أمام عيون الطفل كما يفتح الألبوم الملون الذي تتضاعف في
كل صفحة من صفحاته الرائع «فالكلمات تحيي في دماغنا بسمائها
المخلوقات التي تمثلها وترمز اليها» لننظر إلى هذه الرموز وهي ترتفع
الواحدة تلو الأخرى وتعلأ بالصور مفهوم الكاثوليكية. ذلك ان
هونوري ما زال يحتفظ في مخيلته بالاحتفالات التي رافق والدته إليها.

ويذكر ترتيلة الشكر إبان الانتصارات الملكية في كاتدرائية
تور، ويتأثر بالاناشيد المقدسة، ووجود الحبر الأعظم وتوهج حلة
الكاهن فيسترجمها بكل ظلالها في العديد من وصفه. فغالباً ما كان
هذا المراهق الذي يبلغ الرابعة عشرة من العمر يعود ليحلم وحيداً في
ظل بناء حجري ضخم ويهيم في ظل جناح كنيسة بحثاً عن الرعشة
المقدسة «وسط رهبة الصمت الفظيعة والروعة الدينية... وصوت
الأناشيد الدينية المؤثر الذي يحركه جرس الكاتدرائية» لقد قرأ بلزак
في الرابعة عشرة من العمر «الرسائل البناءة» وبيتهج خياله الصغير في
اللحاق في الآباء المبعوثين في البراغواي وهم يتوغلون في الغابات العذراء
لهداية المتوحشين. ويستمتع إلى ابيه يؤكد رغم إلحاده ان «لا شيء
يوازي الكنيسة الكاثوليكية سياسياً في حسن عملها من أجل تقدم
الإنسانية والائحاد العام في سبيل تحقيق عدالة متساوية لكافة الناس».

وقد أتت النصيحة ثمارها فقد امتدح الكاتب الشاب في إحدى أولى مؤلفاته «تاريخ اليسوعيين بلا تحيز» في عام ١٨٢٤ بجاح الآباء بناء القرى النموذجية «الرسل والمشرعين».

«هل ظهر في العالم دليل أفضل لبرهان ان الدين المسيحي المطبق إذا طبق بامانة يقود الدولة إلى السعادة» هذا هو حجر الزاوية الذي بنى عليه المفكر نظامه السياسي الإجتماعي.

وهذه هي القاعدة الأولى التي وضعت عام ١٨٢٩ في غشاء الكآبة «اننا ندين لـ (Pater noster) بفنوننا وأصرحتنا وعلومنا والخير الأكبر حكوماتنا الحديثة...» ويمكن لهذه العبارة ان تشكل فكرة رواية الكنيسة حيث تعدد كل المؤلفات التي وضعها رجال الدين في العلوم والفنون والأدب والبر من أجل تقدم الإنسانية.

في كانون الثاني ١٨٣٢ حقق بلزاك خطوة حاسمة بانتسابه إلى حزب الشرعية الجديدة ونشر ضمن مجموعة من القطع الأدبية الزمردة، (Emeraude) مقالاً عاطفياً حول رحيل شارل العاشر وعنوانه الرحيل «لقد أبحرت معه على السفينة الفنون الحزينة» ويتخذ كلمة الكاثوليكية التي غالباً ما كان العجوز المبعد يلام بها، كل بعدها وتترين بكل حلاها: «الترف والفنون والفكر» كل هذه الأشياء الجميلة التي تصنع وطناً قوياً وعظيماً. فالميل إلى البذخ هي أرستقراطية وملكية بجوهرها. ماذا يمكن لحكومة بورجوازية ان تعطي؟ فالملك الشرعي قادر على إنقاذ فرنسا فهو يملك امتياز السلطة الكبيرة التي تعطي المال «الضروري للتجارب التي لم تثمر بعد

وغزوات الفكر البطيئة وإلهام العبقريّة، وتدور كافة هذه الآمال في رأس الكاتب الذي بدأ يعرف الشهرة. لقد بدت الكنيسة كالمملكة ملهمة الفنون وحامية لها وحاضنة للفنانين.

وتمثل الآن كلمة كنيسة «مجموعة» من الأفكار التي تهاجمه بلذّة، وتنتشر إحداها تيارها عليه- وفق نظريته- ذلك ان العمل يعزوه بالحصول على كرسي نائب. فيغد ترشيحه وينشر في المجدد (Le renouvateur) (٢٦ ايار و ٢ حزيران ١٨٣٢) جريدة الشرعية الجديدة نوعاً من البرنامج الإنتخابي: ابحث حول وضع الحزب الملكي ننقل منها هذا المقطع: أن افضل مجتمع هو ذلك الذي يوفر الخبز للبروليتاريا ويقدم لهم الوسائل الضرورية للتعلم والتملك في نفس الوقت الذي يضغط فيه على التجاوزات المحتملة للقسم المعاني من الأمة في مواجهة القسم الميسور أو الثري.

«الا يشكل الدين أقوى وسائل الحكومة لدفع الشعب إلى القبول بالامة والعمل المستمر في الحياة؟ وأخيراً هل يمكن ان تقوم ديانة لا رموز لها ولا نشاط ديانة فكرية صرفة؟».

«تكن كافة العقائد الملكية في هاتين الفكرتين ضمناً، هاتان الفكرتان اللتان يمكن اختصارهما بالديانة الكاثوليكية والملكية الشرعية».

«أن الشرعية هذا النظام الموجود من أجل تحقيق سعادة الشعوب اكثر من هناء الملوك ناتج عن عدم استحالة حكم الشعب حين

تعترف الدولة بحقوق متساوية للمعدم والغني ، للجاهل ولذالك الذي يملك قوة فكرية .»

«تملك الكاثوليكية سلطة على الاحداث ذلك أنه في الوقت الذي تعجز فيه الافكار الفلسفية عن قهر السرقة نجد ان صورة يسوع المسيح والسيدة العذراء رمزا التضحية الضرورية لبقاء المجتمعات تبقى مجموعات كاملة في دروب التعاسة وتدفعها إلى القبول بالفقر والعوز...» .

وهكذا يبدو الحزب الملكي عقلانيا من الناحية الفلسفية في عقيدته الأساسية : الله والملك . فهذان المبدأان قادران وحدهما على إبقاء القسم الجاهل من الأمة ضمن أطر حياتها الصابرة والنقادة .

يقضي هذا التفسير للمسيحية بقسوته على مكانة الرحمة والحب الأخوي الذي أوصى بها حين نادى بحب الله . ويرهن رجل الديالكتيك ان نظريات الحكم المطلق السياسي المأخوذة عن بونالد (Bonald) وجوزيف دوميتير (Joseph de Maistre) تؤدي إلى توفير راحة الطبقات العاملة ورفع مستوى العائلة وتقدمها هذه العائلة التي تشكل الخلية الإجتماعية الأولى دون ان نعثر فيها على زبدة الحنو الإنجيلي .

يشكل طبيب الريف (١٨٣٣) بحثاً خيالياً عن التطبيقات العملية لهذه النظريات السياسية الإجتماعية في ميدان حكم وإدارة إحدى المقاطعات فتحسنها وتمحيها اقتصادياً واخلاقياً . لقد جاءت

النتائج رائعة بعد ان حطمت وقهرت كافة العراقيل مسبقاً. وفيما يلي موقف (Bénassis) طبيب الريف والمتحدث بلسان بلزاك ومحقق هذه التحولات : « كنت أعتبر في السابق الديانة الكاثوليكية مجموعة من الآراء المسبقة والخرافات المستغلة ببراعة والتي يتوجب على الحضارة الذكية إنصافها وبت اليوم أعترف بضرورتها السياسية ومنفعتنا المعنوية وأنهم قدرتها عبر قيمة الكلمة التي تعبر عنها ذاتها. الديانة تعني الرابطة والعبادة أو بكلمة أخرى تشكل الديانة البيئة القوية الوحيدة القادرة على الربط بين الفئات الاجتماعية وإعطائها شكلاً دائماً. وأخيراً لقد بت اتنشق الطيب الذي تسمح به الديانة جروح الحياة ، لقد احسست دون مناقشتها أنها تتوافق بشكل رائع مع اهواء سكان البحر المتوسط : ماذا يجدي التعليق على العبارة الأخيرة ! فلاحظه الوقائع والنتائج التاريخية والأحاسيس تكفي لتقرير الإلتحام بالكاثوليكية المعنوية. ماذا يجدي النقاش ؟ ماذا يجدي الانسحاق خلف الماورائيات ؟ فالمدافع عن العقيدة النصرانية يتعرض للكنيسة في كاهن القرية (١٨٣٥) من أكثر نواحيها ايجابية وروعة : المنافع الأرضية والترقي المادي والنظام الاجتماعي. فالراعي بونيه (Bonnet) يطمح إلى تحقيق كافة هذه الأمور حين يحلم في دير سان سوليبس (Saint Sulpice) بمهمته التبشيرية الجديدة ويصل إلى ضرورة اختيار بقعة مجهولة ليبرهن فيها بتجربته ان الديانة الكاثوليكية هي القدرة الحضارية الوحيدة الحقيقية وهذا عبر منجزاتها الإنسانية » فيختار لذلك ضيعة منسية في أعالي الليموزين Haut Limousin

المونتينيكا (Montégnac) التي يعتبر سكانها من المتوحشين فيتوصل هذا الكاهن الريني البسيط بجهوده وعزمه على تمسين حالة الأرض البوار وأوضاع الناس المتخلفين. وتدل تجربة مونتينيكا (Montégnac) كتجربة فوريب (Voreppe) ان الديانة الكاثوليكية هي العامل الاجتماعي الأول وضابطة الأهواء الوحيدة. وغالباً ما كان بلزك يستند إلى هذا التحديد الذي اوردته للمرة الأولى في طيبب الريف «الكاثوليكية هي نظام كامل لكبت الميول المنحرفة لدى الانسان» الأمر الذي يمكنها من التحول «إلى وسيلة صالحة للحكم» و«ضرورة سياسية» و«السلطة الوحيدة القادرة على محاكمة السلطات المدنية والسياسية» وفرض الطاعة الشرعية والقانونية على الجماهير.

واننا لتساءل هل يشير تأمل كاهن (Montégnac) مونتينيكا حين يتكلم عن الكنيسة-«التمثلة عبر أعمالها الإنسانية»-وقول يناسيس (Bénassis) : دون مناقشتها-أي الكنيسة-على التحفظ الذهني لدى بلزك؟ هل كان يقصد القول بأن الحقائق العقديّة لا تتسم بأية أهمية بنظره؟ والجواب هو بالطبع. ونحن نعرف ذلك. فهذه النصوص لا تحتاج إلى أي تعليق وهي تعكس فكرة الكاثوليكية التي تمثل نظاماً أخلاقياً واجتماعياً. فبادئها هي اساطير خصبة وغزيرة فالقربان المقدس مثلاً يمثل رابطة الأخوة والمشاركة الشاملة...

يفضم العرض الكامل للنظام الكاثوليكي البلاكي عدة فروق من الآراء. ونخطئ باتهام الكاتب بالجهل الديني نظراً لبعض الأخطاء

في التفاصيل عند تحليله القضايا الضميرية والطقوس الشعائرية تأمل مطولاً في المعطيات العقائدية الكاثوليكية الأساسية كما تبين عبارات عديدة. فقد ورد مثلاً في التعاليم الدينية الاجتماعية الكاثوليكية هي أكمل الديانات لكونها تندد بدراسة الأمور المفهومية فيها وتقبل بواسطة الكنيسة بالمكلمات الدينية القديمة التي ترمي التقرب من الله بصورة أوثق. ويشهد ما فعله المراهقة في أوائل لصالح الكاثوليكية. فالوحي مستمر في الكنيسة وجامد للملحدين». لقد رفض عن وعي سلطة الكنيسة المعلمة دون أن هذا في إبراز كل العظمة الكامنة فيها.

لقد خف بسرعة تصلب محافظته ولأن مع شعور الشفقة انفخه سان سيمون ولامنيه في قلبه إزاء الطبقات العاملة. ويملك بلزك كمثلهم سان بول (Saint Paul) و فينيلون (Fénelon) القدرة على التعاطف مع الآخرين فهم كهنة فنانون يؤمنون بالله المستقبلية، فرجال الدين جانففيه (Janvier) و (Bonnet) وشابرون (Chaperon) و برو (Brossette) يجمعون بين مهامهم الأسقفية والمصالح الشخصية ويمتلئ قلبهم حنواً وشفقة على الفقراء والبؤساء والنبوذيين من المهدت ويشير بلزك إلى نفسه في الكتاب المقدس (e livre Mystique) حين يكتب في دوقه لالنجيه (١٨٣٥) « حين جمل لامارتين ولا (Laménais) ومونتلامبار (Montalembart) وغيرهم الكتاب الموهوبين وزينوا بالأشعار أفكار الكنيسة وجددوها وأثروا

كان هؤلاء الذين يفسدون الحكم يثيرون الشعور بمرارة الديانة». وقد بلغ به الأمر إلى الأسف في مقال نشره في المجلة الباريسية في ٢٥ أيلول ١٨٤٠ لرفض بلاط روما أخذ «الجرعة المقوية إكسبر» الديموقراطية الكاثوليكية الذي قدمه له لامنيه (Lamenais). ذلك أنه بتكليفه «هذا الإصلاح» مع الظروف وباخراجه من صلب الكنيسة يجعله صحيحاً فينقذ بذلك العروش. وقد كتب في التعاليم المسيحية الاجتماعية فصلاً سماه الرق «نبرص عبيداً أرقاء غير مسمين، عبيداً أكثر تعاسة من الأرقاء أنفسهم، أكثر بؤساً من العبد لدى الأتراك أكثر يأساً من العبد لدى القدامى أكثر شقاء من الزوج» أنهم عمال المصانع الذين يتركهم أرباب عملهم يفنون من الجوع والعناء وقد سبق للامنيه (Lamenais) أن تأثر بمصيرهم البائس وخط عام (١٨٣٨) نقداً عنيفاً في الرق الحديث (de l'esclavage moderne) وكان بنواستون دوشاتونوف (Benoiston de châteauneuf) وفيليرمييه (Villarmé) العضوان في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية قد انتدبا من قبلها عام ١٨٣٢ لإجراء تحقيقات حول وضع العمال في الفبارك. وقد افتتح في نفس الوقت زميلها الفيكونت دوفيلنوف-بارغمون (Vicomte de villeneuve-Bargemont) الحركة الاجتماعية الكاثوليكية. وقد اتبع بلزك دربهم فأشار إلى احصائيات بنواستون (Benoiston) حول عدد اللقطاء من الأطفال وأعرب عن اعجابه بهذا العالم (فيزيولوجية الزواج ١٨٢٩).

وباشر عام ١٨٤٢ بنشر الجزء الأول من الوجه الآخر للتاريخ المعاصر حيث أشار إلى بعض العلمانيين الأبرار الذين انتظموا في جمعية إحسان تحمل إسم «أخوة المواساة» وبدأوا بتضميد الجروح الاجتماعية في باريس بتقديمهم العون لكافة الطبقات من الفقراء والعمال. وقد عمد أحد الأخوة ألان (Alain) ليتمكن من دراسة حاجات العمال وتحسين شروط عيشهم المادية والمعنوية إلى العمل كرئيس للعمال في إحدى القبارك التي أصيب عاها بعدوى العقائد الشيوعية وياتوا يحملون بتقويض المجتمع ونحق الأسياد فتمكن بهذه الوسيلة من الدخول إلى منزل مئة أو مئة وعشرين فقيراً الذين أضلهم البؤس قبل أن تنبهم الكتب الفاسدة. وقد كان لهذه «المؤسسة الوليدة» أمثاها المتعددة والحقيقة في الكنيسة الفرنسية في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد استفادت هذه المؤسسة في شروط قيامها وبداية عملها وإحسانها من المثل التي وفرتها جمعية القديس فنسان دو بول (Saint Vincent de Paul) التي أسسها فريدريك أوزانام (Frédéric Ozanam) وجمعية الإقتصاد الخيرية التي ترأسها الفيكونت أرمان دو مولون (Armand de Melun) فنحن نجد كافة أعمالهم المحسنة ومبادراتهم الطيبة وقد أنجزتها جمعية إخوة المواساة فقد كان بلزك يعرف مولون وقد التقى به كما يقول هذا الأخير في مذكراته في السهرات الأدبية التي كان ينظمها الأمير ميتشيرسكي (Metchersky) الأمير الشاعر الذي كان يعتبر قصره منتدى يلتقي فيه كافة رجال القلم.

إذن يمكن اعتبار الوجه الآخر للتاريخ المعاصر (١٨٤٢-١٨٤٨) قصيدة الإحسان المسيحي وفصلاً من تاريخ الكنيسة في فرنسا. وتأخذ الرواية كل معناها في التعليمات التي توجهها السيدة لاشانتيري (La Chanterie) رئيسة هذا المعهد ومن بعدها عميد الأخوة ألان (Alain) إلى غودفروا (Godefroid) إلى المتدرب الجديد أي الراهب طالب الخدمة كالإيمان العميق والتوكل التام على الله والخلود له ، «كن أداة طيعة في يد الله ، وانكر حب الذات وتجرد من كل غرور ومداهنة في الذات» ، وأخيراً ممارسة الفقر حتى العوز عن قناعة وصرف كافة الأموال الشخصية وتوزيعها كصدقات. وقد وردت ضمن هذه التوصيات ضرورة التواضع والخضوع بعد الأمر بالصلاة. وفي الوقت الذي ينشر فيه الإخوة أعمالهم الحسنة يقدمون أنفسهم على أنهم وكلاء ومندوبي شخص مؤمن فصدقاتهم لا ترمي إلا إلى حب يسوع المسيح عبر أجسام أخوته المرضى ، فهذا الإحسان الفعال هو تعبير واضح عن الحب الداخلي والأبدي «فنحن نعتبر أن للشقاء، والبؤس، والألم والمعاناة والشرمها اختلفت أسبابها وتباينت الطبقات الاجتماعية التي تظهر فيها نفس الحقوق ، فالباثس مهما اختلف آراؤه أو إيمانه هو باثس ويتوجب علينا ألا ندفعه إلى التطلع إلى الكنيسة أمنا المقدسة إلا بعد إنقاذه من اليأس أو الجوع وعلينا أن نهديه بمثالنا وحنونا لا بأية طريقة أخرى فنحن نؤمن أن الله يسد خطانا في هذا السبيل وأن كل ضغط سيء». وقد ارتفعت السيدة شانتيري (Chanterie)

إلى قمة الكمال ليس فقط بخضوعها وصبرها في شقائها بل بترفع
عفوها عن جلادها «إنها صورة حية للتسامح».

لقد اعتاد إخوة المواسة على قراءة ومناقشة فصل من المحاكاة
والتعمق فيه ليعايشوا الألم ويعتادوا صعوبات العيش من أجل حب
يسوع المسيح وتعتبر رسائل القديس بولس كتابهم الاجتماعي الوحيد
«فن الضروري أن يستطلعوا بقلوبهم ويلموا بعقولهم بالمعنى الأزلي
للمسألة حول الإحسان» قبل أن يباشروا ممارسة مهمتهم. وهكذا
يضعنا بلزك في قلب الفوطيحية المسيحية الصافية فهو يملك الفكرة
التي تتيح له الفهم الكامل لمعنى الكاثوليكية أي الأخوة المسيحية
صفة القديس بولس وتمثل كافة المسيحيين بالسيد المسيح وتشبههم
به بواسطة العفو.

ونجد أن بلزك يميز تماماً بين مفهومين جمع بينهما يسوع تحت
إسم الحب فيما سماها القديس بولس الإحسان. فن الإحسان أو من
حب الله الذي يتيح لنا الإتحاد مع الرب ويعطي أعمالنا قيمة تقديرية
يتولد حب المستقبل أو الإحسان إليه الذي يبرز من خلال أعمال
الشفعة الروحية أو الدنيوية.. وتتخذ هذه الأعمال بعداً أبدياً بفضل
النعمة الإلهية. وتولد بين الأشخاص الذين يتوحد بينهم الإحسان
الكاثوليكي «شعوراً كبيراً مطلقاً للبدأ». يولد صداقة رائعة مترفعة
عن كافة الصغائر وكل حساب ذميم. صداقة تكون رابطة الأسرة
الصغيرة التي ترأسها السيدة لاشانتيري (La Chanterie) :
فالرجال الخمسة يكونون لهذه السيدة حباً روحياً «تسمح به الديانة» ويثير

مثل هذا اليقين الحماس في النفوس فيملاً غودفروا (Godefroid)
الشعور بالحياة وتتضاعف قواه عشرات المرات «فالحياة هي أن تعيش
من أجل الآخرين وتعملون معاً كرجل واحد، وتعمل وحدك من
أجلهم جميعاً ! الحياة هي أن يكون الإحسان رائدك وأن يكون مثالك
أجمل الصور التي أخذناها عن الفضائل الكاثوليكية». لقد اكتشف
غودفروا هذه القوة العظيمة حين رغب بنكران ذاته وتناسبها فعوضته
عن «تضحيته» وما يؤسف له فعلاً هو اغتيال الفردية منذ الثورة
«للتجمع» «إحدى أهم القوى الاجتماعية» التي أحلت التجرد مكان
الإحسان والرحمة. ونرى أن بلزاك يستغل كافة الفرص للتنديد بالبدل
في سبيل الإنسانية. وردها إلى الخيلاء والزهو وهو يعتبر «ان الديانة
المسيحية هي الوحيدة القادرة على توفير النظام» الضروري لبقاء أي
تجمع سواء كان للإحسان أو لغيره. و«لا يمكن لأي تجمع القيام على
غير الشعور الديني الذي يروض الأفكار المتمردة والحسابات والجشع
بكل أنواعه».

يعبر مفهوم الكاثوليكية الواردة في الوجه الثاني للتاريخ المعاصر
عن فضيلة البر الصافي التي ترينا في كل إنسان شقيقاً لنا وتدفعنا إلى
حب الآخرين ومساعدتهم. وقد تعمق هذا المفهوم منذ عام ١٨٣١
منذ كتب بلزاك نهاية كاهن تور (Curé de Tours) وبدأ متشككاً
حول مطلب الكنيسة الحقيقية من شمولية الإيمان والمدارك. «ألا
تشكل المواطنة العالمية التي ترنو إليها روما المسيحية خطأ جسيماً؟
صحيح أنه من الطبيعي الاعتقاد والإيمان بتحقيق مثل هذا الوهم

الجميل حول الاخوة بين الناس ، ولكن الآلة الانسانية لا تملك للأسف هذه الأبعاد الإلهية الجميلة . فالنفوس الكبيرة القادرة على التحسس والمقتصرة على الرجال العطاء لا تتوفر قط للمواطن العاديين البسطاء ولا لأرباب العائلة . فأى عالم لاهوت لا يقب بشكل مطلق بالشمولية الفردية . ويبدو أن بلزاك لم يكن يعتقد في ذلك الوقت بإمكانية تحقيقها وحتى في حال اقتصرها على عدد ضئيل من الأشخاص في مختلف بلاد العالم . فهو لا يعتقد بقدر وحدة الإيمان على خلق أخوة شاملة لدى كافة الأشخاص الذين يؤمنون بنفس المذهب . ونجد أنه بعد أن بين تطور الشعور بالايثار على الصعيد الطبيعي : العائلة والقبيلة والعشيرة والمدينة والطبقة والديانة في الوطن موثلها النهائي . فالانسانية والعالمية هي أفكار لا يتفهم إلا قادة وحدهم مثل بطرس الأكبر وإينوسان الثالث (Innocent III)

لم يتوقف فكر بلزاك منذ ذلك الحين عن تفحص الثروة التي تمثلها الكاثوليكية بالنسبة إليه . فقد اصطبغت الكوميديا الانسانية منا عام ١٨٣١ حتى النهاية بالأجواء المسيحية .. وحين يهاجم أحبا الأبطال الكنيسة ويتعرض لها فان الهدف يكون إتاحة الفرص لآخ بان بيرز وبيبر ويمدح الأعمال التي قامت بها .

هل نغالي باعتبار بلزاك أحد المدافعين عن العقيدة النصرانية ؟ وإلى أي حد يمكن اعتباره كذلك ؟ نلاقي الجواب هو التساهل بمسؤولية تحملها الكاتب إرادياً وغالباً ما صرح بها كما في الفتاة العانس مثلاً (La vieille fille) . لنفصل في الخلاف بين

أفكاره ومعتقداته المارتيئية وتعليماته ذات الطابع الكاثوليكي. إن بلزك
كغيره من الكثيرين من علماء الفلسفة واللاهوت كان مقتنعاً أن هذه
الإزدواجية لا تلتطخ إيمانه ولا تنال منه ولا تضعف قط قوة موقفه
ولا حاجته في الدفاع. بل كانت تزيد من نزاهة دفاعه برأيه. ويمكننا
إذا شئنا أن نأسف لأفكاره هذه ولكن هذا لا يمنعنا من اعتبارها
واقعة يجب الأخذ بها. فهي توضح سبب تأليف بعض الروايات على
الصعيد الأدبي وتبين إشراقية بلزك على الصعيد الأخلاقي والديني.
وأنا لا أفاجأ قط حين سألتني بها بعد لحظات وقد تقمصت روح
هنريت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf) الكاثوليكية
المتصوفة كما تدخلت في روح الراوي في مجاهرته بالإيمان الكاثوليكي.
وما زال النقاد بعيدين عن امتلاك كافة النقاط التي يتقدم ويتحلل
بها العقل الذي لا يمكن تقديره وفق المعطيات العادية، الدلائل على
عظمته وقدراته الكبيرة. فهذا العقل يمكن أن يمثل على خريطة
مجسمة ترتفع فيها قم جبلية تتعرض لها الواحدة بعد الأخرى دون
تمهيدها. وموضع الخلاف هنا هو كاثوليكيته.

فلا علاقة لمشاهد من الحياة الخاصة، أو طبيب الريف
أو الحظر أو بياتريكس أو دوقة لانجيه ومجلس القدامى أو قيصر بيروتو
أو الفتاة العانس أو كاهن القرية أو الموظفون أو الوجه الآخر للتاريخ
المعاصر (باستثناء ملاحظة صغيرة) أو للفلاحين أو غيرها من الروايات
الأخرى بالاشراقية. فهي تمثل لوحة للعادات الارستقراطية
والبورجوازية في ظل عودة الملكية وحكم لويس فيليب. فهذه

القصص الخيالية والمقاطع من الحياة الواقعية كانت تثير أحكام المؤلف فيعبر عن آرائه ويؤيد ويدين. فتتخذ الفضائل والنقائص والأهواء والشوائب والعادات أشكالاً حية وفق النماذج المعاصرة. فدوقة لالنجيه (Langeais) مثلاً تمثل رياء ومكر اللياقة في المجتمع المخملي الباريسي. ويمكن تطبيق الصيغة «هل تريدون أن تمنعوا عن سيدة من البلاط الملكي الطاوله المقدسة حين يطلب التقرب منها في عيد الفصح؟ على الممارسات الدينية وغيرها من قواعد الحياة الاجتماعية، هذه المحافظة الملائمة للحزب السياسي الذي يريد أن يحصل من الديانة على قاعدة لبقائه في السلطة. وصف هذه المغالاة والرياء لا يعني تأييدهما وغالباً ما ندد بهما بلزك وخصوصاً في فوبور سان جيرمن (دوقة لالنجيه) فهو يسخر من السيدات المشهورات اللواتي نادراً ما يذهبن إلى الكنيسة في الوقت الذي يزين أحاديثهن بالعبارات المسيحية الجديدة العابقة بالسياسة». فهذه هي جهودهن الورعة، دراسة مختلفة للمرأة (Autre Etude de femme).

يلزم من يود تقدير مفهوم الكاثوليكية بصورة صحيحة لدى بلزك التقيد بشرطين: لا بد من وضعه في عصره وعدم اعتباره وفق منطق المسيحي الحالي ثم أخذه ضمن الاطار الزمني مع مراعاة تطوره.

حين قرر بلزك الدفاع عن الكاثوليكية كان شاتوبريان وجوزيف دوميتير وبونالد ولامينيه وفرايسينو (Frayssinous) وبلانش (Ballanche) قد مهدوا الطريق. فتبنى وسائلهم.

النصرانية في الإثبات في السنوات العشر الأخيرة بعد أن درسهم جيداً. وعندما رغب الكاهن جانففيه (Janvier) في هداية الأمر جينستا (Genestas) بين له أن الديانة الكاثوليكية تحافظ على « المنافع الأرضية التي تمسه مباشرة » (طيب الريف) ويردد له أقوال المطران فرايسينو (Frayssinous) الذي يأسف للأخذ بالديانة ، بسبب روح العصر « من زاوية علاقتها مع المصالح الانسانية » فهي تسهر على الحفاظ على الأموال ، وتستبعد الفوضى وتغذي الشعور بانكار الذات والتضحية لدى الفقير. أما فيما مضى الحججة المأخوذة من خصوبة الكنيسة في كافة الميادين من فنون وآداب وجمال مقدس فقد كان مأخوذاً به أيضاً في ذلك العصر. فقد استغله شاتوريان وبلانش (Ballanche) ولاكوردير (Lacordaire) لأنه يتوافق مع الحساسية الرومنسية. ولا يحق لنا الانتقاد فهناك أناس يجذبهم إلى الدين الشعور بالجمال وقد كان عددهم كبيراً في الفترة الممتدة بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٠ ومن الخطأ انتقاد بلزك والنيل منه وحده بسبب « كاثوليكيته الواجبه ».

أضف أنه يجب علينا ألا نتجاهل التطور المستمر في أفكاره الدينية نحو المسيحية الجوهرية الصافية. كذلك لا يمكننا أن ننسى تمجيد الشعائر الدينية (الزنبق في الوادي ، وربة الجمال في المقاطعة) ونزاهة قيصر بيروتو وانقياده الفوطيبي وتأنيب ضمير فيرونك غراسلين (Véronique Graslín) وتكفيرها القاسي واحساناتها الشعبية والتوبات المتعددة ومنها توبة الطيبين بيناسيس (Bénassis)

ومينوريه (Minoret) تسامح البارونة الورعة هولو (Hulot) مع زوجها الخائن . وهناك خصوصاً براعم البطولة الرائعة لدى إخوة المواساة . فحياتهم الصوفية عابقة بتيارات القداسة وغنية بالفضائل الإلهية وحي الإيمان والرجاء والمحبة . وما زالت النفوس ترتاح إلى يومنا هذا في الخلود إلى هذا المكان . كم تطور منذ عام ١٨٣٠ ! ان الوجه الآخر من التاريخ المعاصر هو نهاية رواية الكنيسة . فهنا كلمتان مخصصتان للكنيسة والرهبان الذين «يخدمون الفقراء» فقد اهتم الفكر ببيان تأثير الكنيسة على النتاج الجمالي على مدى العصور . وهناك لا يهتم قط بالخارج بالترف المقدس والغنى الظاهر للعقيدة ملهمة العبقريات الفنية . فكل جهود المؤمن التي تتجمع وتختنى في السر الداخلي لتكمل جال النفس والروح التي لا تطلع عليها سوى نظرات الله فيما تقوم دائرة الفقراء الأعضاء المعذبين في هيئة الكنيسة الصوفية بملء هذا الظلام بتفان أخوي يجعله ترفعه أكثر فعالية . لقد كان بلزك يتنصر للإيمان الذي سواه التواضع وطرقته التجارب فجاء ثمة للصلاة والتأمل لا بد لاقتطافها من الجدارة القائمة على الكمال والدلوف على طريق الصليب المقدس الملكي .

ويعتبر عدد كبير من الأشخاص أن تصريح عام ١٨٤٢ الوارد في المقدمة . «أكتب على ضوء حقيقتين أزلتين الديانة والملكية...» يتناول المفهوم الاجمالي للكاثوليكية الضيقة والدفاع عن المصالح الأرضية . ولا يمكن ألا يكون الأمر كذلك كما يقولون لأن الوجه الآخر للتاريخ المعاصر لم يظهر إلا عام ١٨٤٨ وبعد مضي ست

سنوات على المقدمة. وهذا التحليل خاطئ. فقد اعترف بلزك في ١١ أيلول ١٨٤٦ إلى هيپوليت كاستييل (Hyppolite Castille) «اني أراجع منذ ست سنوات أمام العقبات الأدبية التي يصعب التغلب عليها» لإنهاء هذه الرواية. وحين ظهر المتدرب الجزء الثاني من الوجه الآخر أكدت ملاحظة أوردها المؤلف أنه بسدا بهذا «أن العمل قد بدئ في هذا المؤلف عام ١٨٤٠» أي قبل عامين من وضع المقدمة ولا بد من العودة إلى أساطير الصفر (Zéro) ورقصة الحجارة (la danse des Pierres) والكنيسة هذه الروايات الثلاث التي شكلت بعد ربطها فيما بينها رواية يسوع المسيح في الفلاندر (Jesus Christ en Flandre) فديانة عام ١٨٤٢ لم تعد «السراج الصغير» الذي تتيح بالكاد شعلته المتهاكمة للعجوز الصغيرة المقعدة، لكنيسة عام ١٨٣٠ أن تنلوقداسها في كوخ كئيب. لقد أصبحت شعلة ملتبه تحيط بهالة ضوئية شابة ملائكية الجمال تحرك باتجاه المستقبل حساماً طويلاً من اللهب لتشعل العالم بإحسانها. هذه هي الاسطورة التي كانت توافق كنيسة عام ١٨٤٢ التي جسدها أخوة الموساة.

تمثل الكاثوليكية التي وصفنا تطورها في فكر بلزك جوهر العقيدة التي تقرب أكثر وأكثر من الامتالية الضرورية لصحة تمجيداته وتبريراته. ولا تغير الاخطاء شيئاً في تغيير هذا النظام. فقد كان الروائي يستعملها لأهداف فنية ولإعطاء مؤلفاته الطابع الواقعي.

تكرس الكاثوليكية في كل هيئاتها نضال الحياة الكبير وصراع الجسد مع الروح والمادة مع السماء. فكل شيء في ديانتنا يرمي الى القضاء على خصم مستقبلنا. انها الخاصة التي تتميز بها الكنيسة الكاثوليكية عن كافة الديانات القديمة. فعقيدتنا كما قلت في طيب الريف هي نظام كامل من قمع الميول الفاسدة في النفس الانسانية. والسيدة مورسوف (Mortsau) هي رمز لهذا الكفاح المستمر. فلو لم تلفظ الشهوة أنفاسها الأخيرة لما أصبحت وجهاً حقيقياً ونموذجاً للكاثوليكية. وتتوقع أن يتحول هذا التحديد الى روح الأشخاص الموزعين بين الايمان بين حساب الأزلية وانطلاقات الأهواء وخصوصاً الغرامية منها. ولكننا نصاب بخيبة أمل. فنحن لا نجد في الكوميديا الانسانية هذا الشاب المليء بالحسوية والنشاط الذي وصفه بوسويه (Bossuet) في مـسـلحـة سان برنـسـار (Panégyrique de Saint Bernard) الذي يندفع في رغباته لكنه يعرف كيف يسيطر على حماسه باتصاله مع النعمة الالهية التي تلهبه بقوة خارقة ليتمكن من الترفع عن غواية الشهوة؟ ولا ذلك المؤمن الذي وصفه بول بورجيه (Paul Bourget) في نزوات منتصف العمر (le démon du midi) هذا المسيحي العفيف الورع الذي تجبط طويلاً مع عقيدته قبل أن يستسلم لإغراء حب أثير غرقت معه فيه كرامته كرعيم كاثوليكي؟ إن كاثوليكية بلزك هي ديانة الرجال الذين خابت آمالهم وخذعوا في أمانتهم وهزمتهم الحياة انهم من العجز المرهقين المتعبين. فهؤلاء الذين يعددون الى الهداية

يهون الله ما تبقى من حياة مضطربة ، منهكة زاوية . ان تجربتهم تدفعهم أكثر من أي باعث خارق الى هذا التبدل حين يرون أنفسهم على درب الانهيار ويشهدون قواهم تتخاذل في ظل القرف . فهم لا يملكون الخيار فالعالم لم يعد يؤثر فيهم ولا بد لهم من كتابة كلمة النهاية «والديانة الكاثوليكية أفضل من بني القلق ويقضي عليه» . هكذا يتحدث الراعي جانففيه (Janvier) الى الأمر جينيستاس (Genestas) مبرهنأ له كباسكال (Pascal) أنه يتوجب عليه أن يتحيز وأن يراهن .

« انني أسألك ما الذي تخسره بالإيمان بهذه الحقائق ويجب جينيستاس (Genestas) لا شيء يذكر فيرد بلزاك . كم هي عظيمة الأشياء التي تخسرها بعدم ايمانك . » .

ويجب بلزاك وصف تطبيق القدم الكاثوليكي على الحضارة أنه مبدؤه الثاني في الخلق الأدبي . فيناسيس (Benassis) وفرونيك (Véronique) وجراسلين (Graslin) يتحررون بهذه الوسيلة من التأنيب الداخلي الذي يتآكلهم بعد ارتكاب الخطأ . كم كانت مؤثرة رؤية العراك بين الجسد والروح لو أن المؤلف التزم ببرنامجه . فهو يراوغ لتجنب الصعوبة فنحن نجد لدى بيناسيس لا مبالاة مطلقة ازاء المبادئ المسيحية وخيبة أملها هي وحدها التي تعيدها الى الله ونرى لدى جراسلين (Graslin) البورجوازية الكبيرة التي تدعي الورع ، نجد أن الرياء الذي يجيده يخفي الجريمة . « لقد خبأت أهوائي في ظل المدايح ، فتجنب بذلك أن تتيه في الفضيحة الرهيبة التي سببتها . فقد

جعلت من تاشرون (Tascheron) عشيقاً لها وهو عامل شاب يصغرُها سناً، يقتل عجزاً وهو يحاول سرقة لتأمين المال الذي يضمن له فرصة الهرب مع عشيقته الى أميركا. ويبدو هنا أن الايمان لا يتعارض مع رغبات الجسد فالمرأة لن تعرف الندم الا وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد عشر سنوات من وقوع الحادث. وتعجز فيرونيك (Véronique) رغم العقاب الاليم عن محو ذكرى الملمات الآتمة من نفسها فندمها لكونها السبب في وفاة حبيبها يتقدم على شعورها بالإساءة الى الله. ولا بد من القول أن الكوميديا الانسانية «تكرس» انتصار الجسد على الايمان المخفق ولكنها تعوض عن ذلك بعرض شهد لتندامة البناء والمؤثر في الحضارات..

ويختلف الأمر وفق بلزك فيما خص السيدة مورسوف (Mortsauf). فهي تجسد هذا الصراع المستمر، انهاوجه حقيقي ونموذجي للمرأة المسيحية التي تنو الى خيانة زوجها الفظ. فهنا نتخذ فضيلة الكاثوليكية الزجرية كل معناها باعتبار أن هذا الكائن الملائكي هو زنبقة الوادي التي لم تدوها رياح منتصف العمر بانفاسها القاسية والتي يقتلعها الموت في بهائها الناصع.

غالباً ما وصف بلزك في رواياته النفسانية الحالات النفسية التي تتسببها المرأة التعسة : امرأة الثلاثين (La femme de trente ans) ، المرأة المهجورة (La femme abandonnée) الرسالة (Le message) جمعة القنابل (La Grenadière) السيدة فيرمياني

(Madame Firmiani) . ويضفي في هذه الروايات التحليل الدقيق والرقيق للأحاسيس التي تملأ فراغ حياة امرأة مهجورة ، وزوجة غير مفهومة السحر على هذه الأفاصيص، المفعمة بالكآبة الخفيفة والمكتئبة بالذكريات التي تقضي أحياناً نعمتها على المرارة واليأس . والجدير بالذكر أن الديانة لم تلعب أي دور في المأساة التي تقرر فيها سعادة السيدات بوزيون (Beuséant) ايقلومون (Aiglemont) والليدي براندون (Brandon) بل كانت الديانة مجهولة تماماً بسبب نوع من النسيان الهين الناتج عن مناورات العادات الاجتماعية . فهي لم تكن تملك أي دور في المواصلة أو في دعم قلوب هؤلاء التمسعات اللواتي آلمهن الهجران والاختفاق . وقد أكملت زنبقة الوادي (Le Lys dans la vallée) سلسلة هذه الصور برسم المرأة الورعة التي خابت آمالها . لقد رغب بلزك في إعادة كتابة اللذة (Volupté) ١٨٣٤ للرد على مقال سافر لسانت يوف (Sainte Beuve) . حيث يبين البطلان أموري وفليكس دوفوندونس Amaury et Félix de Vandenesse أن الإنسان يعجز عن السيطرة على مشاعره بالحب الأفلاطوني ان لم تغمره المشاعر الدينية أو الايمان العميق الحي . ان بطللة اللذة (Volupté) السيدة ووين دوكر (Mme de Couaën) تتعلق بتحفظ وحياء في صمتها المحصن فتمنع الشكوك من مراودتنا حول عزتها الشاحنة . أما بطللة الزنبق السيدة مورسوف (Mortsauv) فانها تتعرض للاغراءات علناً حتى أنه يمكننا القول أننا لا نجهد شيئاً من عزة نضالها فقد عرضت

علينا كافة هذه المراحل بكل دقائقها. شهدت هذه السيدة التحسة المرهفة الاحساس التي تعذبها فظاظة زوجها المريض بجياله وعنفه، شعوراً ناعماً يملأها ويغرقها به بحب شاب معجب بها يخفف عنها بتفانيه واخلاصه. ولا يمنعها عن الاستسلام له سوى ايمانها بالمسيحية. ويكن كل فن هذا القصصي في التحليل الدقيق للمشاعر وحس الورع المتكتم والمتعاقب حيث بين الخنو التلقائي أو المنسحق القلب أو المتقبض المنكش العذاب الداخلي ويدل عليه. ونلاحظ أن لا قيمة للأحداث الخارجية فالخيال يعطي مادة شعرية. إذ أن العالم كله يعلم أن حب عاشقين يحول الصحراء المقفرة الى عالم مليء بالأحاسيس.

وتنقل الكاثوليكية هنا من الأخلاقية الاجتماعية الى الاخلاقية الفردية، من حدود المذاهب الى حدود قضايا الضمير. فتتحول «الصغائر الى أمور عظيمة». ذلك أن ضميراً تقياً كضمير هنرييت دومورسوف (Henriette de Mortsauf) يمكن أن يعتبر العبارة أو الهمة أو الصمت أو الحركة أو المصافحة أو الابتسامة أو التهنيدة أو الفكرة التي لا يعتبرها المجتمع خفة، أخطاء جسيمة بناء على قول المرشد اذا نمت عن نية واضحة أو رغبة آئمة غير مكبوحه. فكل هذا يمكن أن يوفر للرفيق، للفارس الدليل على الانتصار المكتسب والمحقق على موجبات الايمان. وعلينا الا ندهش للوسائل التي يعتمد عليها الغاوي باعتبار أن بلزك قد استغل كافة النظريات النفسية والحيل الناتجة عن التجربة ومنها الورع الرومانسي الذي

ينجح مع سيدة تقيّة. فالعاشق يأخذ من الطقوس الكاثوليكية عبارات التعبد ومن الشعائر المقدسة صفاء ومواقف خانعة ومن الصلوات دعوات تحول عن معناها الصوفي لتخدم عشق الجسد. ويتخذ القسم طابعاً عميقاً مؤثراً مأخوذاً عن العقوبة الأبديّة المفترضة. ويتدثر ببخور مسروق من الألوهية الخالدة، وتنال هذه العطور من عناد المتمسكين بها وقد لجأ فروست (Fraust) الى هذه الوسائل الملتوية لسحر فريسته.

تشكل الأزمة التي تعاني منها هنرييت دومورسوف (Henriette de Mortsauf) وكفاحها الذي تتمسك به الحكبة الدرامية التي أعظمتها الكاثوليكية للروائي. فنحن جميعاً نعرف التروات التي استشفها كورناي (Corneille) من تعاقب العواطف التي أبدتها بولين (Pauline) ازاء بوليوكت (Polyeucte) لقد كان يسع بلزك بنقله هذا الوضع الى المجتمع المعاصر أن يجعل بقدرته على المراقبة مؤثرة مراحل التمثل العاطفي والاضطرابات والتراعات الداخلية. وبما أنه كان يرغب بانتصار الايمان على الجسد كان يتوجب عليه أن يبرز ذلك بصورة أفضل عبر الاغراءات والاعجاب والنهوض والدعم الالهي. ولكنه عجز عن ذلك فالفكر الخارق كان يعوزه. فهو لا يمتلك مفهوم الخطيئة أو الشعور بالذنب أو النفور من الفرائر الجسدية أو الرجاسة. كذلك لم يتفهم القوة والصلابة التي يبثها في النفس العفو المستحق بالنضال والجهد. لقد اكتشف في تاريخ العادات والاخلاق نظرية عادية لقد تعاضمت الكاثوليكية

يعرف بعد أن اختار كمثل للأمانة الزوجية الكونتيسة دومورسوف (de Mortsau) الورعة التقية التي تقوم بواجب الاعتراف بصورة متكررة أن الخطيئة وان كانت فكرية لا تتعايش مع حب الله في قلب واحد. والاعزاء الذي يصفه في حالته الحادة لا يمكن أن يدوم سنوات طويلة لأنه يعني العيش في توتر مستمر يقارب حالة الخطيئة المميتة .. وهذا أمر لا يقبل به أبداً. تخيلوا الوضع الذي يتوجب عليه إيجاد حلول له فكل ظروفه معروضة في رسالة هنرييت (Henriette) الى فيليكس (Félix) أعيدوا قراءتها. إن هنرييت تبلغ الثامنة والعشرين من العمر وفيليكس في الثانية والعشرين وهي متفترزة من زوجها وهو ذو طبع مندفع وشهواني لا يكبح من جاحه أي رادع اخلاقي. وقد تلاقيا كثيراً خلال ثماني سنوات في عام ١٨١٥ وإلى عام ١٨٢٣ وحتى وفاة هنرييت. وهما يعيشان تحت سقف واحد ويتقاسمان ألفة بيت واحد خلال أشهر طويلة. كيف يسع هذه المرأة ادعاء المسيحية حين تدلّكي لدى صديقها التهاب مشاعره باعترافها له باضطراب أحاسيسها وتشعل رغبته بلقاءات خاصة على ضوء القمر أو في ظل خميلة متواطئة؟ كذلك نجد أن أحاديثها لا تدور ولا تتناول إلا موضوعاً واحداً: روعة الحب الصادق وجمال التفاني والتضحية وغالباً ما يقاطعها هو باعترافاته فتكتفي هي بالاجابة عبر نصف الاعترافات والتنهيدات الشاعرية وعبرات الأسف وغضب الغيرة. فالواعظة الجميلة تدعي المعرفة وتؤمن بعكس ما تعلمه لعشيقها حول الحب المقدس. ففي هذا الوضع مغالاة في الخيال

وبالتالي استبعادية جامعة فبلازك الذي كان يدعي اللجوء الى قاموس الحالات النفسية le dictionnaire des cas de conscience الذي كان مستعملاً من قبل الكهنة المسنين في عهده (الفندق الأحمر (l'Auberge rouge) لم يستطع الا الوقوع في الخطأ النفسي والفيزيولوجي... وهكذا نرى انه باستغلاله مأساة خاصة ناشئة عن المعتقدات الدينية قد تخلى عن المجال الأدبي وسقط في الرواية المسلسلة. تستعرض هنرييت مورشوف (Henriette de Mortsauf) حالاتها النفسية بانتظام لمذيرها كاهن لابرغ العجوز. فييدي رغم «قسوته وترمته» تسامحاً كبيراً فهو يسمح لها ليقينه أن بعد الحبيب يقتل الحبيبة، بالاحتفاظ به بقربها شرط أن تحبه محبة الابن. ويدل هذا العذر على رقة الذممي المكار.

لقد نصب بلزك نفسه مرشداً فبدا أخرقاً رغم حسن نيته. ذلك أن المرشد والمعرف يبرزان كثيراً في الكوميديا الانسانية. كذلك يعتبر ضرباً في الخيال امكانية وجود انسان قائم قادر على تدبير مؤامرات ودسائس كتلك التي يديرها كهنة فانتانون (Fantanon) (العائلة الزردوجة) (une double Famille)، تروبيه (Troubert) (كاهن تور) (le Curé de Tours)، كروشيه (أوجنيه غرانديه) (Eugenie Grandet) والقس هاير (Habert) (بيريت) (Pierrette). ويدهشنا فعلاً أن تلجأ سيدة ذكية كالسيدة مورشوف بعد وفاة الكاهن العاقل والمتفهم دولابرج (de la Berge) الى الكاهن بيروتو التافه وتترك لها قيادة

روحها وإيجاد حل لمشاكلها وهو الذي يكتبني بالتأثر لحالها بدلاً من توبيخها وتأنيبها. ويبدو مسلكه أمام فراش التابئة التي تعاني من سكرات الموت غريباً... فهي حين بلغت حافة النهاية انجرفت في هذيان شهواني وشدت اليها صديقها وصبت في أذنيه هذه الكلمات، كلمات طفلة صغيرة تطالب بالحصول على لعبتها.. «هل من المعقول أن أموت أنا التي لم أتمتع بحياتي.. أريد أن أعيش.. أريد أن أركب الخيل بدوري.. أريد أن أعرف كل أشياء الحياة.. باريس، الأعياد، الملذات.. أريد أن أكون محبوبة.. سأمارس كل التروات كالليدي دودلي (Lady Dudley) (منافستها).. وحين رأى الكاهن التعس هذا المشهد جثا على ركبته وتطلع الى السماء بتضرع ليختلط ترتيله بهذيان العاشقة.

لقد تفاوتت المواقف من مشهد التراع الذي تخيله بلزاك. ونحن نعلم أن السيدة برني (Berny) وهذه سيدة ذواقه مجربة وحكيمة بآرائها قد انتقدته.. وإن كان بعض النقاد يعتبره من أجمل وأروع فصول الكتاب وروونه رمزاً عظيماً وحقيقياً لحقيقتين متصارعتين الزوجة والعشيقة. أفلا يجيها الفن بالتناقض؟ لذا فإن النفوس الحساسة تتأثر ليأس هذه المرأة التي ناضلت طوال حياتها للحفاظ على فضيلتها وشرفها.. هذه المرأة التي تتخلى فجأة عن مبادئها المسيحية التي سندها طوال ثمانية عشر عاماً، تتخلى عنها فجأة حين تقف أمام الله وتؤكد أنها قد أخطأت خطأ فظيماً.. لقد حرص الروائي على اعلام القارئ مرتين أن هذه التصرفات هي تصرفات جنونية وأنها تشكل تعاقباً بين

الانتقاد الالهي واليأس الدنيوي ، وأن أريج الأزهار قد أثر على أعصاب المنازعة. اذن الأزهار هي التي سببت هذيانها وهي ليست مسؤولة عما جرى.. فالمشاعر السائدة على الأرض وأعياد الخصب ولمسات المزروعات قدأنحملتبطيبتها وأيقظت في أعماقها مشاعر الحب السعيد التي تغفو فيها منذ عهد الشباب. أن هذه الحجج تافهة. ولا شك أن الروائي قد وعى هذه الحقيقة فلجأ ليقنعنا بصحة هذه الحالة النفسية الى مواعظ قسين وفرض علينا حكم طيب وعرض لنا رأيه الذي نعرفه : الا أن كل هذا لا يقنعنا البتة. فاعترف هنرييت دومورسوف (Henriette de Mortsauf) لزوجها قبل لحظات من وفاتها بحبها الأفلاطوني لفيليكس ، واعلان فيرونيك غرالين (Veronique Graslin) علاقاتها الآثمة بتشارون (Tascheron) للكاهن خلال القداس تصدم الواقع واللياقة. وتقدم الكوميديا الانسانية المثل عن هذا النقص في التفهم للوقائع الروحية ..

ويقدم لنا استر غوبسيك (Esther Gobseck) باسمها الحربي «الطرييدة» المثل النموذجي والغريب (روعة وبؤس العشيقات). فقد تمكنت هذه العاهرة اليهودية التي وضعها كاهن مزيف كارلوس هيريرا (Carlos Herrera) في دير باريسى تربي فيه الشابات الارستقراطيات من أن تتقدم بقرابنها الأول وتتعلم في نفس الوقت أصول اللياقة والأدب لتصبح بعد تحولها عشيقة لوسيان دو روبومبريه (Lucien de Rubempré) السرية ولترفعه الى قمة

النجاح الاجتماعي والفرح وهي تحكم مثل نينون (Ninon)
أو ماريون دولورم (Marion Delorme) أو سيدة من آل دوباري
(Dubarry) . وينافس بلزاك أوجين سو (Eugène Sue)
و بيغولوبرون (Pigault Lebrun) وتبكي القارنات الشابا ويعتقدن
أن هذه هي طبيعة الديانة الكاثوليكية ويعتبرن أن أفكار الحب
الشهواني والزنديق ويظنن أن الادعاءات والغنج تتوافق في القلب مع
الخشوع حين تتقدم المتناولة فخورة بزينتها ويجالها نحو المذبح . نحو
خطيبها الرباني ، وسط الهتافات الصامتا التي تشعر بها حولها وقد
غطت وجهها بمنديلها الزنبي . ونجن لا ننتقد هذه اهتماماً بالأدب بقدر
ما نعتبرها تحدياً للتفسير الصحيح والحقيقي والواقعي للمؤثر لحادثة شبه
عادية : بساطة الايمان الذي يملأ قلب فتاة شابة . لقد كان الايمان
المتولد عن الحدس والمشاعر ، والوقف على الطبائع الغظة يرفض كل
تحالف مع المنطق . وكان هذا يشكل الايمان الحقيقي العميق والوحيد
بنظر بلزاك ، الايمان الساذج . وقد ظن أنه قد حققها لدى هذه
العاهرة ايستر غوبسيك (Esther Gobseck) ذات الطبيعة العفوية
التي لا تملك حسابات صغيرة .. فحديثها الذي ينال من المنطق
يتحدى كافة المستحيلات الجسدية والاخلاقية .

ولنلاحظ أخيراً أن المعطيات الكاثوليكية لزنبقة الوادي
(Lys dans la vallée) مصبغة بالأفكار المارتينية التي تأخذ بها
هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf) . ويتوجب
اجراء دراسة عميقة لهذه الازدواجية الدينية التي تنطوي على تنافر

مطلق. فللهذه السيدة رؤى واحساس داخلي وهي تملك قدرة خارقة على رؤية ما يجري في منطقة أخرى بشأن مصير من تحبهم فهي تسمع صوتاً ناعماً يفسر لها دون كلمات وبواسطة الاتصال الذهني النصائح التي يتوجب عليها تقديمها لهم. وهكذا تظهر الحالة الصوفية التي توصل الصلاة الى الملهمين وأصحاب الرؤى. وقد تمكنت مرتين في حياتها من دخول المعبد الالهي. كما نجد أن قصر حياتها الداخلية مزين ومرصع بالصور الأدبية وهي في نفس الوقت الذي يؤمن نيه الى حد اليقين بقدرتها على الرؤى تدفع معرفها الى رد هذه الوقائع الدافعة الى التدخل الالهي. وهي متحفظة الى أبعد الحدود مع مرشديها تخفي عنهم معتقداتها المارتينية التي تبيح لها مثل هذه الخوارق العاطفية.

ويتوافق هذا الوضع مع وضع بلزاك تماماً. فهو يمنع من اعتبار البطلة مسيحية كاملة لذا نجد أن السؤال التالي يفرض نفسه علينا. الى أي حد يتيح هذا الوضع تأثير السر المقدس على نفسها؟ ان الزنبقة في الوادي (le Lys dans la vallée) يشكل نموذجاً كاملاً للنظام الديني الذي ينادي به المؤلف. أنه الكاثوليكية الشكلية والتقليدية التي نجد كما لها ونقاوتها في الرؤى المارتينية التي تبث في الروح الرغبة في القيام بنشاط اجتماعي غيري أي ما يسميه في الفيلسوف المجهول « الصلاة الفعالة ». باختصار ان هذه الرؤية هي تحريف كامل لنظريته وان كانت هنرييت تمثل بصورة سيئة كفاح الروح ضد الجسد. إذا رغبتنا في تقييم المنفعة الفنية التي يطبعها الروائي في الشعور

المسيحي لا بد من اجراء مقارنة بين الزنبقة والشهوة الحسية فهما تختلفان بأسلوبها وسيكتهما. وسانت بوف الذي يملك معرفة عميقة بالمبادئ المسيحية قد سبر بفضول الأدب المقدس وجمع الأريج الصوفي لبعض آباء الكنيسة ، فقد كان ذكاؤه المنطلق يراهن على قدرته في اختلاس أسرار الضمائر بعد أن عانت روحه من أزمة دينية . ألم يوفر له كل هذا القدرة على وصف العذاب الداخلي الذي يمزق المسيحي الذي يتجاذبه عبادة الشهوات والانقياد لها . والذي ارتعش في مصيدة الجمال الشهواني حين يثيره النير الذي يفرضه عليه حبه الأفلاطوني لامرأة فيتصلب فيه القلب التائر على القوانين الإلهية ؟ .

لم يعان بلزك قط مثل سانت بوف (Sainte Beuve) من عواصف الإيمان ولم يزهّد التعاون مع آباء الكنيسة ومؤلفي الكتب المقدسة ولا الصهارة المقدسة ولا رباطة جأش النسك التي تثيرها حتى في العبادة التي لا فعالية لها . فأناية طبيعته الشهوانية قد أضعفت في كل رابطة جديدة فكرة التدنيس وهذا إن ملكها أبداً .

ولم يكن أي وهم ينال من رغبته ولنذكر كيف اندفع فيليكس في بداية الزنبق في الوادي (le Lys dans la vallée) وراء جنون الطباع التي تكشففت له فجأة وقدمت لجمال السيدة مورسوف اجلالاً يدل على حيوانية رهيبه . كذلك يثير تحفظ أموري (Amaury) العميق والطويل وعذابه الداخلي الشفقة . كم يبدو سانت بوف رصيناً في اندفاع العواطف حيث تخور الرغبة السيئة . فهنا يجعل الفن الإغراءات

أكثر مكرراً. على عكس لاجحة بلزك التي تبدو مستهجنة أحياناً، فالأساة تدور إذا تجرأنا القول بصورة سطحية وتعطي آثاراً سهلة. وهذا على عكس النظرة المتسللة التي يلاحق بها العالم النفساني دون أي استثناء التعرجات والاضطرابات والاغراءات ومواربات الاغراءات التي تلي الانطلاقات الغامضة الهاربة. فهو يدون الجروح الفظيعة التي تتركها المحركات الملتوية في هذه النفس الضعيفة التي تنال من جوهره الكريم بسبب التصرفات الانانية الطائشة وإن كانت غنية بالمعطاء والكرم. وهو لا يفغل عن أي استحواذ أو تسلط أو وسواس أو ضعف صغير أو سقوط كربه يتبعه مرارة أو قرف أو تخرقه القرارات المفتعلة أو أطيايف الضعف. انه يعمل بتمهل ولكنه يتقدم بخطى ثابتة. فهو بملاحظته الصبورة يوقفها كأبي طيب عند ظهور أي دليل جديد.

تعتبر السيدة كوون (Couaen) الزنبقة الحقيقية بين البطلتين فالعار مها كان طفيفاً لا يدنس طهارة ندرتها.. فقد سما الإيمان الرصين بقلبا الى القمة البيضاء التي لا تصلها سوى صقور ارشانج (Archange). فقلقها المليء بالأحاسيس الانسانية لا يخرج قط من منطقة الأمومة وحيزها، وهي معطاء بلا حساب ولا يأس أفلا يشكل الصدق كل قيمتها؟ وبراءتها تمنعها من الشعور بالخطأ والتهور الذي ارتكبته بتكبير قلب شاب. فيما نرى أن السيدة مورسوف (Mortsauv) تلهث وتنبهر إثر استراحة المداعبات الخفية وتتطلع باستمرار إلى هذا العزاء. فالمؤلف يخلق بطلته وفق مزاجه وإن كان

هذا لا يمنع أن وسيلة عمله تدل على جوهره هو. فهو يأخذ من أعماقه أبطالاً ساهمون في طبيعته وإن اضطر الى تطويع روحهم بمادة يأخذها من الوحي الإلهي. لقد عالج بلزك وسانت بوف موضوعها وفق ميول وأهواء طباعها. وقد استحوذ أحدهما أكثر من الآخر على تفهم المنابع السرية. فلكانه عجز متخصص بارشاد النفوس فيحدد في روح اموري نقاط العفو الغامضة ثم وخط سيرها والاضطرابات التي تثيرها وهو يشير الى توازن الارادة المطرد الذي تسانده القوة العلوية والذي يستعيد شيئاً فشيئاً تواتر الفراغ العلوية الحيوي. ولا بد اننا كررنا في السابق أن راسين كان مثاله.

الأمر الذي أحاطه مؤلف بالشهوانية بالحساسية وصبغه بالحساسية في صفات اموري (Amaury) فشل مؤلف الزنبقة في سكبها للسيدة مورسوف (Mortsauf) التي تبقى سجيته حاهادون أن تلتف منها رهاقة السكون الذي يمنحه العفو؛ وهذا يعني القضاء على النجدة الإلهية كما يبناه في دراسة هذه المرأة من الناحية النفسية. ويكمن التشابه الغريب لدى الكاتبين في خلطها في نفس ابطالها بين تأثير المارتينية والمسيحية الصرفة. فكل من هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf) وأموري (Amaury) يؤكدان أخذهما بتعاليم رجل الرغبة (l'homme de désir). إلا أننا نلاحظ أنه في الوقت الذي يسود لديه الإيمان الخاضع للكنيسة تتولد لديها استقلالية في الفكر موافقة للأهواء التي تعذبها. وأخيراً نجد أن سانت بوف يفعل كيفية ممارسة السيدة كرون

Mme de Couaën لديها. فهل يمكننا رد هذا الى حياته؟ أم الى خشيته من امتهان الكهنوت المقدس: أم لبراعة بينها الفن؟ لقد امتنع سانت بوف عن الاستعانة بأي مرشد في تسيير هذه الصداقة العاشقة. وإنما لتساءل هل يناسب هذا الوصف أم لا العاطفة التي تملأ قلب السيدة كوون (Mme de Couaën) لأموري؟ إلا أننا نجمل هذا حتى اللحظة الأخيرة. وإذا عللناه وفق رغبتنا فعلينا نحمل كافة المسؤوليات. وعلى العكس من هذا نجد أن بلزاك يحمل مرشدي السيدة مورسوف (Mme de Mortsau) مسؤولية الوضع الغامض والشائك الذي يتخبط فيه قلبها ذلك أن أي قرار واعٍ كان سيضع حداً لهذه العلاقة. فيما نرى أن ليونة سانت بوف قد رفضت الأخذ بهذه الوسيلة التي استغلتها جورج ساند (George Sand) وأوجين سو (Eugène Sue) ومؤلفو الروايات المسلسلة ومحبها. فقد كان المؤلف يفضل أن يعهد الى سرية المذبح بالآراء والنصائح التي يقدمها الراعي الحكيم إلى نعاجه الضائعة لا يشهد على ذلك سوى الملائكة. وتؤكد لنا إحدى صفحات الشهوانية (Volupté) هذا الأمر. ذلك أن ما من أحد قدم رأياً أكثر اجلالاً لدور المرشدين المساعد والمعطاء.

إن نزاع السيدة كوون (Mme de Couaën) وهو مشهد رائع بعظمته يهز الانسان في أعماق أعماقه ببساطة الكلمات ورموز الإشارات المقدسة. وهو يدل على صلابة المنازع الهادئة المضمورة بقناعته بقرب تحرره. شاتوبريان لم يتمكن من بلوغ هذه النقطة المؤثرة وبلزاك غلفها بالمناورات والاقنعة المسرحية.

ويتيح لنا فن سانت بوف وحيأؤه أن نسود الظل الذي تحجبه
بعناية روح البطلة المعذبة ، فهو يستغل الانقباض والانكماش ليزن
الانفعال ويدخل في المأساة آثراً سريعة وغير متوقعة. ففي هذا
الاحتفال العظيم الذي ستجد فيه مأساة شهوانية نهايتها يحرك المؤلف
باحترام أشياء مريعة ويحيط صفات الكهنوت باجلال كبير. فجوسلين
يتحدث ويتصرف بوصفه ممثلاً وبيروتو بوصفه مغفلاً اما اموري
فيبدو كاهناً حقيقياً. خانعاً لله الذي امر بمواساة الخاطئ المعذب
النام. وهكذا تتمحي الذكريات المؤثرة وتبعد المحاباة الضارة ،
وتظهر قوة الوقائع الروحية اصولها المهيبه وتحيط بطاقة خارقة الكاهن
الذي يتجلي بايمانه أمام هذه المنازعة التي تطلع إليها في الماضي
برغبات غير صافية وقد انطفأت كل شهوته إلى الأبد وملأه الشعور
بالندم. وتجبرنا العبارات المقدسة التي يتلفظ بها وهو يتحسس باصابعه
أعضاء الحواس ويمسحها بالزيت المقدس إلى قطع معانيها. ويعمد
سانت بوف الى تفسيرها وتعليلها وتبناها ليشر بعذاب الأنا
الداخلية. ويستغل إلى أبعد الحدود مجال القدسية فيتحول اهتمامنا إلى
معرفة نيته ، وينكشف فجأة «الستار» الذي كانت تغلف به هذه
المسيحية قلبها وتخفيه حتى عن صديقها فنكتشف بفتة بالأمواج التي
نعصف بالأعماق دون أن نحمد صفحة بحيرة ايرلندا هذه الصورة التي
كان يرمز بها اموري الى عظمة السيدة ككون (de Couaën) ابنة
ايرين (Erin) الخضراء.

يدل تقعر اسلوب بلزاك وبريقه الصاحب الذي صبغ بها

أوصافه لتزاع السيدتين مورسوف (Mortsauf) وفيرونيك غراسلين (Veronique Graslin) على القصور والرعونة بالمقارنة مع لوحة سانت بوف الصافية الندية. فقد عجز كاتبنا عن رؤية الجمال البعيد عن العواطف. فقد عزلت عنه عبقريته اضواء الحب الأبدي. ولم يكشف بريقها إلا في الوجه الآخر للتاريخ المعاصر (l'envers de l'histoire contemporaine) آخسر رواياته. والسؤال الآن بأية قدرة تملك سانت بوف (Sainte Beuve) الرؤيا المخالفة؟ لقد أفرغت وطهرت موهبته في الشهوة الحسية عمله من بذاءة وتشويه الرومنسية التي تكمد الغاية المسيحية في زنبقة الوادي (Lys dans la vallée) .

وإذا نظرنا الى الحياة الكاثوليكية الصرفة ، العابقة بكل متطلباتها وأعماقها في الروايتين فاننا نلاحظ أن سانت بوف (Sainte Beuve) هو الذي يفرضها في قلب الحدث .. انه هو المنفذ الحقيقي الذي يكمن فيه في الأسرار المحبأة ، وشبه الملونة والذي يبجل العقيدة . فبلزك يلهث وراء الأشكال التقليدية المعروفة وينظر الى الأمور من الخارج ليوضح فكرته واسلوبه .

* * *

ومها كان الأمر فقد وضع بلزك الواقعية في خدمة الافكار الكاثوليكية . وتحسس جهاها الشاعرعي وقد نافس في البداية شاتوبريان (Chateaubriand) ولامرتين (Lamartine) في وصف المظاهر

والزخارف الخارجية. وعلينا أن نتذكر لوحة صلاة المساء في كلوشغورد (Clochegourde) ولكنه كان بالدرجة الأولى معلم الرواية الذي كان البعض يسميه الرواية النصرانية. الرواية المثبتة للأفكار. بعد أن كان هذا النوع الأدبي غارقاً في الإيهام محتثناً بغير بعض المؤلفين الكثيين الملمين الذين كانت سطحتهم تنشر رتابة على روعة إيمانهم فيثرون القرف. طيبب الريف وكاهن القرية والوجه الآخر للتاريخ المعاصر كانت غارات جريئة في السماء المقفرة. وبهذه المحاولات أبعء الوحي الرومسي الباحث باستمرار عن الروعة المسيحية تملق العهود القديمة المستهلك. وقد وجدت روحها الأدبية عبر الأشكال والزخارف اليومية والعادات المعاصرة حتى تلك السائدة في صفوف الطبقات الشعبية. فقد لقيت فيها مشاكل تتطلب الحل، مشاكل أكثر حيوية وإثارة من تفاهة (René). فقد أدخلت الكاثوليكية في ميدان الاصلاح الاجتماعي والاحسان. لقد تعرض لها بلزك قبل بورجيه (Bourget) وباريس (Barrès) وبازين (Bazin) وبومان (Baumann) وبيغي (Péguy) وبوردو (Bordeaux) وموريك (Mauriac) وبرنانوس (Bernanos).

ولا يمكن اعتبار مؤلفاته الكاثوليكية تافهة بكاملها فهي تعطيه بنظر المؤمنين عظمة لا يمكن حظرها أو النيل منها فهي تستمر في تحقيق الأهداف التي رمى إليها أي التأثير على النفوس وهو تأثير يريح الجماهير ويتيح تقدمها الأخلاقي. لقد كان بلزك يستخلص من الحياة الانسانية القوانين الكبيرة التي تسير ويبرهن بالاحداث أن الكائنات

تتعرض كالحقيقات تماماً إلى أقسى التجارب كلما ابتعدت عن الوصايا العشر وخرجت عنها. ففي هذه الوصايا يمكن سر البطولة وكنهها. فنحن نراه يتحول إلى فضائل لدى بيناسيس (Bénassis) وفيرونيك غراسلين (Véronique Graslín) والسيدة لاشانترى (Lachanterie) ورفاقها وقبصر بيروتو (César Biotteau) والقاضي بوبينو (Popinot) والماركيز ايسبارد (d'Espard) وبورجا حامل الماء (Bourgeat) وكاتب العدل شينيل (Chesnel) والطبيب ميرويه (Mirouët) وبييرت لورين (Pirrette) وأورسول ميرويه والسيدة هوشون Hochon ومارغريت كلايس (Marguerite Claës) وأوجيني غرانديه (Eugénie Grandet) ووالدتها والفلاحة العجوز والدة الأطفال اللقطاء (طبيب الريف) إلخ... ويرد بين مؤلفات بلزاك كتاب سمو المسيحية في لغز الألم وهو كتاب يمكن تصوير غلافه على طريقة الغلاف القديم لطبيب الريف أي بصورة تمثل المسيح وقد حمل صليبه. فكل هؤلاء المسيحيين يرتكزون على أرض البؤس الواجب مؤساته والتجارب التي لا بد من الخضوع لها ولا يفرقون في المشاهد الخارقة فصلب المسيح وارتفاعه إلى السماء هما حقيقتان واقعتان. ويقول بلزاك ان المرء يشعر بتحسن عند معايشة هؤلاء الناس، الرمز الحي للحقيقة الأزلية التي يتوجب على كل كاتب عاقل أن يرد بلادنا اليها. ويمكن القول أن بلزاك لم يخطئ فيما خص الكاثوليكية

فقد دلت الأحداث على صدق ذرائعه التجريبية التي تبناها عدد كبير من المقتدين به .

وكان أحد محاكيه نبياً فقد يجلب بارييه دورفيلي (Barbey d'Aurevilly) في مقدمة «الأفكار والحكم» (١٨٥٤) حول الديانة والسياسة المقتطفة من «أورال الماس» أي الملهة الانسانية بعد تصنيفها بالمدح الرائع عبقرية بلزك القائمة على مفهوم النظام والوحدة والحقيقة .. فقد اعطى جواباً رائعاً للأفكار التي أساءت طويلاً فهم أخلاقية بلزك ومؤلفاته . ولا بد لهذه الأفكار المسبقة والأوهام أن تزول . فبلزك المؤمن الكاثوليكي المطلق بأفكاره ككل مفكر يتسمي إلى هذه المدرسة السلطوية التي لا نلقاها إلا عند ارتقائنا إلى مستوى معين في كافة العلوم وفي كافة المؤلفات الانسانية . إن الكاثوليكية لا تحتاج إلى أحد إلا أنها ستعتبر بلزك يوماً أحد كتابها وأكثرهم اخلاصاً ووفاء ، فهو ينهي كافة القضايا كما كانت الكاثوليكية لتنهيا .

- ٤ -

الافكار السياسية

يضع بلزك على نفس المستوى من التطور التاريخي
«الكاثوليكية والملكية، هذان المبدأان التوأمان» كما يقول في المقدمة.
لقد كان يؤيد الشرعية أي الحكم المطلق ويعارض الملكية الدستورية.
فقد أمضى حياته كرجل وكاتب (١٨٣٠-١٨٥٠) في ظل حكم
لويس فيليب وحافظ على ازدهاره الملكية تموز «إذا لم أتمكن من
العيش في ظل الملكية المطلقة فاني أفضل الجمهورية على هذه
الحكومات الحقيرة الهجينة التي تفتقر إلى روح المبادرة والمبادئ
والأسس والتي تثير كافة الالهواء دون الاستفادة من أي منها وتحمل
أمة بكاملها إلى العجز لعجزها». لقد كان يعتبر الملك استمراراً
للسلطة القوية المحركة للتقدم والحكم بين الطبقات في مصالحها
المتناقضة والمتباينة فهو الوحيد القادر على جمع الابتزاز وكبح
الاختلاس فهو حامي العدالة. السلطة هي القوة. لذا كان بلزك
يرفض الاقتراع العام «فن يقترح يناقش ولا وجود للسلطة في ظل
النقاش فالجماهير لا تكسب المناقشات الفردية» والبروليتاريا هم
قاصرو الأمة ويتوجب عليهم البقاء تحت الوصاية...، وهذه حقيقة
واقعية وضرورية. فهناك تناقض في الكنه والجوهر بين الجماهير والقانون
الذي غالباً ما يتناقض مع مصالح الفرد. علماً أن الجمعية الوطنية

ستهادن هذا الفرد على حساب القانون فتكابد المصلحة العامة من ذلك. ان السلطة لطبيعتها القمعية تحتاج إلى تركيز كبير لتقاوم بقوة ثابتة الحركة الشعبية. لقد كان بلزك يعتبر البرلمانية امرأ مضرأ وقد انتقدها بشدة فالجمعية العامة تناقش بدلاً من العمل. لذا لا بد من ان يكون القانون والسلطة من صنعة شخص واحد اضعف ان لامسؤولية الوزراء الفعالة تثير طموح السطحين.

المساواة هي وهم لا يرتكر قط على طبيعة الأشياء. وهو يخالف نظام التفوق الاجتماعي من «تفوق فكري وسياسي وثورات: كالفن والسلطة والمال وغيرها أو بكلمة أخرى المبدأ، الوسيلة والغاية» إلا أنه من الضروري ان يكون للشعب وكلاؤه لتقرير الضريبة: الموافقة عليها أو رفضها وأن يتمكن الأذكيا من النخبة الذين يملكون إرادة قوية الابتاق من بين الجاهير وان يمتلكوا الوسائل الكفيلة بالاتاحة لهم باكتساب اعداد جيد وبلوغ الدرجات العليا من المجتمع والسلطة. ولا بد من التمييز بين «الحرية المطلقة» و «الحریات المحددة والمميزة» فالاولى سراب طوباوي والثانية تشكل واقعأ ناجعأ. الديانة وحدها تستطيع توفير التوازن بين السلطة القصى والجاهير العاملة المتألمة بإبقاء الأولى ضمن حدود العدالة وأمر الثانية بالخضوع وفرض الرحمة على الأغنياء. يجب استبدال الفردية المتولدة عن الثورة بتقديس العائلة. الخلية الاجتماعية الحقيقية. ويرفض بلزك حرية الصحافة ويتحسر على النبالة وحق البكورية وتوزيع الأملاك بالعدل والقسطاس بين الابناء ويحتج بعنف على القانون المدني.

هذه هي باختصار نظريات بلزك السياسية وقد تولدت هذه الأفكار عن التعاليم التي غرفها من مؤلفات جوزيف دوميتير Joseph de Maistre ويونالد (Bonald) هذان النسران المفكران اللذان اتخذاها استاذين له «مختاراً» وفي وقت مبكر. وقد كتب في نهاية حزيران ١٨٣٠ إلى صديقه سلمى كارو (Zulma Carraud) يقول: «لقد تأملت مطولاً في بناء المجتمعات. وأنا لا افكر منذ اليوم مع هوبس (Hobbes) ومونتسكيو (Montesquieu) وميرابو (Mirabeau) ونابليون (Napoléon) وجان جاك روسو (J.J. Rousseau) ولوك (Locke) وریشوليو (Richelieu)...» وكان يقول: «إذا كان الفكر السياسي يتطلع إلى تحقيق راحة الجماهير فان الحكم المطلق أو أكبر تركيز ممكن للسلطة مها كان اسمه هو أفضل وسيلة لبلوغ هذا الهدف الإجتماعي (الرحيل ١٨٣٢). ولا تتوافق هذه الأفكار السياسية تماماً مع نظرية الملكية الفرنسية التقليدية فقد أدخل بعض السمات القيصرية في وصفه لرجل الدولة ورئيسها ونجد هذه الأفكار معروضة بشكل واضح في طبيب الريف (Le médecin de Campagne) على لسان الطبيب بيناسيس (Bénassis) وفي كاهن القرية Le curé de Village والوجه الآخر للتاريخ المعاصر... وتوطد هذه المعتقدات وتوضحها بعض الروايات والمقالات والرسائل الأخرى...

لقد تحققت توقعات بلزك السياسية في نقاط عديدة: سقوط ملكية تموز وارتقاء الديمقراطية والإشراكية والشيوعية. وكان يعتبر

هذه الأحداث نتيجة للامبالاة البورجوازية الأنانية ورغبتها بالاثراء السريع على حساب العدالة الاجتماعية وتغاضي الحكومة وعجزها عن رؤية سخط البروليتاريا. كما فضح «البؤس الفظيع الذي تقوم عليه البورجوازية الباريسية» فالملهاة الانسانية مليئة بصور النبلاء الذين لا يستحقون لقبهم والبورجوازية الدنيئة الخسيسة والكهنة الدسائين المتآمرين والمستهوين. ولا يمكن اعتبار هذه الصور دليلاً على عدم صدق صاحبها السياسي.

غالباً ما يتردد قول (Talne) (في نهاية دراسته عن بلزاك) الوارد في بحثه الجديد عن النقد والتاريخ بان بلزاك « هو سان سيمون الشعب » ويمكننا ان نجد في الدراسة الأدبية والفلسفية للكوميديا الإنسانية التي وضعها مارسيل باريير (Marcel Barrière) مقارنة بين مذكراتي (مؤلف مذكرات تاريخية أو أدبية) القرن السابع عشر ورومنسي القرن التاسع عشر مصور العادات « لقد كان كلاهما بالمرصاد لنقائص وتجاوزات السلطة كانا قاسيين لا يرحمان مثل دانت (Dante) وفي نفس الوقت ساخرين مثل موليير (Molière) : لقد قاما بنفس الدور كمنصفين ... فقد أدت سخرية بلزاك وسان سيمون من نقائص وتجاوزات عصرهما الى نفس النتيجة التي بلغتها احكام تاسيت (Tacite) على الحكام في روما القديمة .

فهل يعني هذا أنه يتوجب علينا ان نتبع اقوال فكتور هيغو (Victor Hugo) في الكلمة التأيينية التي ألقاها أمام قبر بلزاك ونصنف هذا الأخير « في مرتبة الكتبة الثوريين » ؟ لقد لقيت هذه الفكرة

صداها «الانتماء الاجتماعي الكبير يدوي عبر الملهاة الإنسانية (La Comédie humaine) فؤلفها يشير إلى الخفايا والاجهزة والقوة السرية والكواليس والمصالح السائدة في عصره» فارتقاء الطبقة البورجوازية بتطورها الصناعي والتجاري الرهيب إلى السلطة وحركة الأرستوقراطية نحو البورجوازية المنتصرة، وتحول طبقة اجتماعية بسبب أخرى متولدة عن ظروف معيشية مختلفة وقيام طبقة جديدة قلبت أشكال الحياة القديمة وادخلت معاييرها هي في مختلف الميادين وفق ماتكته السيدة ماري بور (Marie Bor) في بلزاك يواجه بلزاك (Balzac contre Balzac) في كراس زهرة النسرين (Les cahiers de l'Eglantine). ونحن نستمع في الاب غوريو (le Père Goriot) كيف يتهم المحكوم عليه بالاعدام فوترين (Vautrin) على الجمال الاجتماعي ويلقن الشاب أوجين دوراستينيك (Eugène de Rastignac) «الثورة على الموافقات الإنسانية وشرط النجاح الأساسي هو الترفع عن القوانين» التي لا تصل أية مادة منها إلى العينية ولا بد من ازدياد الناس واستغلالهم كوسيلة لبلوغ المآرب. لا بد من البحث عن اللحام التي يمكن تجاوز شبكات القانون عبرها ويوافق بلونديه (Blondet) الرأي بقوله ان القوانين هي نسيج العنكبوت الذي تتجاوزه الذبابات الكبيرة وتقع فيه الصغيرة منها (la maison Nucingen) انهم المستغلون ورجال الأعمال مثل تيليه (Tillet) وفينو (Finot) وأصحاب البنوك مثل (Nucingen) نوسينجين

والمرابين مثل غوبسيك (Gobseck) . وتتضاءل كل الاعتبارات والقواعد حين يفهم راستينيالك ويستوعب امثولة فوترين (Vautrin) : فقد رأى العالم على حقيقته وشهد القوانين والاخلاق عاجزة أمام الاغنياء و رأى في الثروة منطلق القوي المطلق « l'ultima ration mundi » وهكذا بدأ يحول الحب إلى وسيلة للثراء وانهارت أوهامه حول الشرف والاستقامة أمام بريق الذهب والترف الذي يوفره . ويصرخ (Rubempré) روبومبريه ريبب فوترين (Vautrin) المتكرر بثوب الكاهن كارلوس هيريرا (Carlos Herrera) بعد ان اغتاله « الذهب وبأي ثمن » . ويتداعى وسواس الضمير أمام الكبش الذهبي ، المعبود المغوي الذي يفري كل الطامعين الموهين وكل طالبي اللذة (الاوهام الضائعة Illusions perdues) . وهم كثيرون في الكوميديا الانسانية (la Comédie humaine) فالمال ينشر سلطانه على جماعة من المهلسين الباحثين عن الثروة . وكم وقع من المآسي العائلية بسبب الميراث الجاذب للأنظار ، والوارثات المرغوبات ، وتنافس المصالح النقدية والفساد والرشوة ! فما من رواية الا وتعكس الأهواء المرتشية وجنون التملك الذي يتجاوز القانون والفضيلة في سبيل التلذذ بالعيش وهذا في كافة الأصوات . فالأب غوريو (Goriot) يصرخ في نزاعة « المال يوفر كل شيء حتى عاطفة البنوة » فقد اكتشف أن الباعث الحقيقي لحب بناته له هو رغبتهن بالاستحواذ على ملايين ابين : فقد قيمن مشاعرهن بالمال ، هذا المال الذي يؤدي إلى قيام

مجاهبة بين دلفين (Delphine) وأناستازي (Anastasie) منافسة تجعلهن أشبه بالضباع. فسلطان المال المطلق يسود ويحكم كافة الأهواء ويشوه عادات الفضيلة والشرف ويحل مكان العقل في تسيير المجتمع : «الذكاء هو الرافعة التي تحرك العالم والمال هو نقطة ارتكاز هذه الرافعة» .

وإذا رغبتنا بالإطلاع على دور المصارف والمرابين في ظل عودة الملكية وحكم لويس فيليب (Louis Philippe) فان اوجيني غراندييه (Eugenie Grandet) وآل نوسينجين (la maison Nucingen) وقيصر بيروتو (César Birotteau) تظهر لنا فساد آل نوسينجين (Nucingen) وكيلر (Keller) وتيليه ، (Tillet) وتواطؤهم السياسي المضر. ويمثل كل من غوبسيك (Gobseck) والأب غرانديه الشغف بالذهب هذا الشغف الذي يلقي ظلاله على الحس الأخلاقي ويطمسه ويخمد كافة المشاعر العظيمة. وقد كرس له بلزاك رواية ماركاديه (Marcadet) التي تحمل اسم البطل الرئيسي وهو سارق تلتف حوله عصابة من النصابين والمحتالين والمرابين والمقامرين ومخربي المجتمع .

هل يمكن اعتبار بلزاك لوصفه الوجه الآخر من الحضارة والسياسة وممارسات أصحاب المصارف الكبرى التي تؤدي إلى إفلاس الآخرين ، والشخصيات الهامة والقراصنة الذين يحظون غالباً بالغطاء القانوني اللازم لهم ، هل يمكن اعتباره مخرباً يهدم النظام والمجتمع ؟

ان بلزك بوصفه رساماً للعادات ومؤرخاً لجيله يصف كافة أشكال التجاوزات وإساءة استعمال الحق ويندد بها بوصفه قاضياً منصفاً ويقدم لها العلاج بوصفه طبيباً اجتماعياً. فهذا يختلف النظام فان رجال المال الباحثين عن الربح طاعون إلى درجة لا تمنعهم من قهر ضحيتهم. ولم يخطئ الروائي بوصف الوسائل التي يعتمدونها في السرقة والاختلاس فهو يقوم بمهمة تطهير سياسي واجتماعي. فن يرفض أن يكون ثورياً على طريقة بلزك؟ فالكشف عن التجاوزات في كافة الميادين هو الشرط الأول لإصلاحها. لقد كان لتسلطية الأثرياء بمثلة عبر المغامر تيليه (Tillet). وقد عهد بلزك إلى زوجته اوجيني دوغرانفيل (Eugenie de Granville) ابنة قاضي كبير وأحد نبلاء فرنسا مهمة وصف أفعال وتصرفات زوجها «تبدو لي بعض الاغتيالات الواقعة في العراء أعمال احسان بالمقارنة مع بعض التركيبات المالية» بنت حواء (Une fille d'Eve) لقد كان بلزك يؤمن ان الحكم المطلق قادر وحده على حماية الشعب الذي يعتبره المستفيدون من الأموال العامة والخاصة ضحية سهلة ولقمة سائفة.

وفيا يلي نهاية آل نوسينجين (la Maison Nucingen) لقد تاحت عملتنا إفلاس إحتيالي للمصرفي نوسينجين جمع ثروة كبيرة قامها على خراب عدد كبير من الناس الذين جمعوا ثروتهم بالعمل بلحاد المرهق. فكان يكسب الرساميل بالمضاربات الخبيثة ويتمكن من تهرب من الوقوع تحت طائلة القانون مما يدفع بلونديه (Blondet)

إلى المطالبة بالعودة إلى السلطة المطلقة التي تقع كافة المؤسسات المتعارضة مع روحية القانون. نعم الاستبداد ينقذ الشعوب بنجدهته للعدالة. فلا وجه آخر لقانون العفو. ذلك ان الملك (الدستوري) القادر على العفو عن المفسد الاحتياالي لا يعيد شيئاً إلى الضحية المنهوبة. الشرعية تقتل المجتمع الحديث. فهذه الشرعية قد اخرجت اورغون (Orgon) من منزله الا ان الحاكم المطلق يفسخ العقد الذي يجرد الضحية من كل أموالها ويعطيها للمحتال. ويعيد إلى اورغون (Orgon) ثروته ويلقي الخائن في غياهب السجن.

* * *

هل حافظ بلزاك بثبات وحتى النهاية على آرائه حول الملكية؟ ينقل الكسندر ويل (Alexandre Weill) في مذكراته حواراً جرى على مائدته بين بلزاك واوجين سو (Eugène Sue) وهنري هين. (Henri Heine) في صيف عام ١٨٤٧. حيث عرض بلزاك على الضيوف مبادئه المعادية للجمهورية والمعادية للاشتراكية والمعادية للشبيوعية. ولكن هذا لم يمنعه ان يكتب في ٢٠ نيسان ١٨٤٨ في السجال (Debats) رسالة تعتبر رأيه المجهر حول العقيدة السياسية. وتشكل رداً على النوادي التي اخطرتة رسمياً بوجود التخصور وايضاح موقفه. « منذ ١٧٨٩ وحتى عام ١٨٤٨ عمدت فرنسا واذا شتمت باريس إلى تعديل دستور حكوماتها مرة كل خمسة عشر عاماً. لم يكن الوقت لإيجاد شكل جديد أو امبراطورية أو نفوذ ثابت في سبيل حماية املاكنا

وتجارتنا وقيمنا وعظمتنا أي كل القيم التي تعزز بها فرنسا؟ أريد أن تكون الجمهورية الجديدة قادرة وحكيمة لأننا نحتاج إلى حكومة توقع عقداً لفترة تزيد على خمسة عشر أو ثمانية عشر عاماً! هذه هي رغبتى وهي تساوي كافة عقائد الايمان».

وقد جرت انتخابات الجمعية التأسيسية في ٢٩ نيسان ولم يحصل بلزك الا على عشرين صوتاً وقد كتب بهذا الخصوص إلى السيدة هانسكا في ٣٠ نيسان: «لقد قضت آرائى حول السطة التي ابغيتها قوية حتى الاستبدادية على حظي بالحصول على مقعد في الجمعية كما ان رسالتي التي وجهتها لم توفر لي أي صوت في صفوف البورجوازية الخرقاء اللاهثة. وهكذا عرفت أنني لن أفوز في هذه الجمعية التي عينوا فيها احد القوالين واسمه بيرانجيه (Béranger) وخمسة عمال! انها للأساة» باختصار يمكن القول ان بلزك لم يعدل افكاره السياسية واخذه بالشكل الجمهوري للحكومة كان مؤقتاً فقد انضم إلى المعارضة لتطلعه إلى عهد أفضل.

ويمكن القول وفق العبارة التي انهى بها الكسندر ويل (Alexandre Weill) ان بلزك كان يرى الحل في جمهورية يحكمها الملكيون كما يظهر في المقارنة بين النصوص فالعبارات التي رثا فيها بلزك رحيل شارل العاشر (Charles X) إلى المنفى (الرحيل 1832 le départ) ونهاية الملكية الشرعية مطابقة تماماً. لتلك التي أعلن عبرها انضواءه إلى الجمهورية اذا رغبت في حماية وتشجيع «كل ما يبني أمة عظيمة ومتقدمة». والفن والفنانين والتجارة التي تحيا بالتعامل بين الناس والفخر والملكية والثروات المكتسبة.

- ٥ -

الأخلاقية والنفوذ

«لم يمن وقت التجرد بالنسبة للحكم علي» هذا ما كتبه بلزاك عام ١٨٤٢ في مقدمة الكوميديا الإنسانية (l'Avant propos de la Comédie humaine) وغالباً ما كان يشكو من «عدم فهم وتقدير أعماله» نعم لقد حصل هذا في فرنسا لا في الخارج حيث كانوا يحلون موهبته كما يقول سانت بوف (Sainte Beuve) ويمكننا أن نطلع على التفاصيل في لوحة مارسيل بوترون (Marcel Bouteron) المكرسة لإجلال بلزاك . وقد كان الروائي موضع احترام وعناية خاصة في إيطاليا وروسيا والنمسا وبولونيا والمانيا وهنغاريا وهذا دليل على تأثير رواياته العميق ليس فقط على الأفكار بل على العادات عبر تغلغلها فيها . فقد كانوا يقلدون أفعال وحركات أبطاله ليحسوا شعورهم ويعيشوا مغامراتهم . كذلك علينا ألا ننسى بأي عمق هوت النساء الفرنسيات من شابات ويورجوازيات ونبيلات كاتبهن وانهن عليه بألاف الرسائل . فالنساء هن اللواتي بنين نجاح بلزاك وحققته فقد وجدن فيه صديقاً حميماً ومواسياً . الأمر الذي أخذه عليه بعنف النقاد الكاثوليك مثل بون مارتان (Pontmartin) وكارو (Caro) وبعض الكتابين الأردأ الذين يفتقرون إلى الذكاء والليبرالي لارمينيه (Lermnier) ومؤخراً

أندريه لوبروتون (André Lebreton) .
 رد بلزك على هذه الانتقادات وقد تأثر بها عام ١٨٤٢ في
 مقدمة الكوميديا الانسانية
 (L'Avant propos de la Comédie humaine) بعد أن أخذ
 عليه الكشف عن الخزايا السرية والرياء الاجتماعي وتعريتها وأغضبت
 جرأته هؤلاء المستفيدين من اخفاء ضعفهم وفسقهم خلف التقيد
 بالأعراف السائدة . مما دفعه إلى الدفاع عن نفسه بحماس وبراعة في
 رده على إيوليت كاستيل (Hippolyte Castille) المعجب
 بموهبة بلزك رغم أنه يعيب عليه كثرة الفاسقين الذين يفسدون عليه
 عمله . ويمكن اختصار الحجج التي تقدم بها بلزك بالعبارة التالية
 « هل يؤخذ علي كثرة الفاسدين على الأرض ؟ السيد الحاكم وحده هو
 القادر على تمييز الطيبين من الأشرار والفصل بين النعاج والماعز » . إذن
 يمكن القول أن بلزك أخلاقي لأنه يدفع قارئه إلى التفكير والتأمل .
 « فان وجد أمرؤ أثناء قراءته للملهة الانسانية
 (La Comédie humaine) أن آل لوستو (les Lousteau)
 ولوسيان دوروبومبريه (Lucien de Rubempré) لا يستحقون اللوم
 فهو يدين نفسه . فمن لا يفضل أن يقوم بدور بيروتو
 (Birotteau) الأمين والتشبه بم . ديسبار (M. d'Espard) بطل
 الخطر (l'interdiction) والتصرف على غرار طبيب الريف
 (le medecin de Campagne) والتوبة مثل السيدة
 غزالين (Mme Graslin) والاتصاف بسمات القاضي بوبينو

(Popinot) والعمل مثل دافيد هبشار (David Séchard) وآل دارتيه (les d'Arthez) بدلاً من اللهاث وراء الثروة ومطاردتها كالمخبثاء والمحتالين. أي بكلمة أخرى الاقتداء بالتماذج الطيبة والفاضلة المزروعة في الملهاة الانسانية بنسبة أكبر مما توفر فيه في العالم الحقيقي. ملك بلزك القدرة على إعلان الحقيقة حول وضع العادات ومهاجمة الأغنياء والنافذين.

لقد أخذ على بلزك الانسياق في وصف البشاعة الأخلاقية ولكننا يمكن أن نضع مقابل المخلوقات التمسعة الكريهة صوراً جعلها الحب البنوي والتفاني الزوجي والإحسان. ويفترض الحكم المنصف على أخلاقية الملهاة الانسانية (La Comédie humaine) توفر فكر قادر على شمول هذه الملحمة الضخمة الأبعاد وتحويل هذا الإدراك للتجمهر الانساني الذي يخضع فيه البعض إلى التواطؤ الغامض بين مختلف القوى الحيوانية ويناضل فيه البعض الآخر بنجاح ضد الشهوات إلى مبادئ ماورائية.

ندد في الماضي بأذية الفتاة ذات العيون الذهبية (La fille aux yeux d'or) فن يتجرأ وينكر أن الانسانية الساقطة لا تعرض اليوم مثلها في جريدة المحاكم؟ روبرومبريه (Rubempré) هو اليوم قيص ذهبي. من ينكر أن الحظر (l'interdiction) وقداس الملحد (la messe de l'Athée) وقيصر بيروتو (César Birotteau) وطبيب الريف (Le médecin de Campagne) وبييريت (Pierrette) والوجه الآخر للتاريخ المعاصر

(l'Envers de l'histoire contemporaine) لا تقدم أفضل ذاتنا وترفع روحنا إلى قمة الخير في أجواء روحانية؟ ليس هناك سوقية وخساسة وابتسـال فقط في الملهمة الإنسانية (la Comédie humaine)، وليست «قمة الشيء» رغم كل نعوت

الكونت أرمان دوبون مارتين (Comte Armand de Pontmartin) لها . فهي كمثل الحياة توفر الصالح والطالح . وتترك لكل فرد حرية اختيار رفاقه . ذلك أنه في مرحلة من مراحل العيش تدفعك الموجبات إلى الاختلاط بمختلف الفئات وتقتضي الفضيلة على التمسك بالأمر التي تؤمن بخيراتها فهذا هو الصراع بين الجسد والروح الذي وافق عليه السيد المسيح . ونحن نتوجه هنا إلى الأفكار المثقفة التي تعتبر أن لا وجود للجمال إلا في ظل الحقيقة وأن الرياء والتلمق وتفاهة المصطلحات لا توفر المناخ الصالح لتحقيق الاحترام . فالجمال الجدير بهذا الإسم لا يمكن أن يستند إلى الأحكام المسبقة .

لا بد من الاغتباط فقد دقت ساعة التجرد التي انتظرها بلزك طويلاً . فحول مؤلفاته تتجمع اليوم الفطن وباعثها ابراز ما نحويه من انسانية وازلية وحيوية وروعة فنية .

لقد مضى العهد الذي كانت تعتبر فيه الكوميديا الانسانية مصنفاً ماجناً . وبات يسود الاعتقاد بأن أفضل ميزاته هو تقديم روايات ثالمية غير روايات الحب هذا الهوى الذي كان يشكل حتى عهده روح القصص . وقد رغب بلزك كما بينا أن يطبعها كلها وبكل أنواع . فأعطى بذلك مادة غنية وخصبة لخلقه .

يعتبر بلزك أبو الواقعية وقد برهن أن للواقع قيمة جمالية وأخلاقية وقد تابع هؤلاء الذين أتوا بعده مثل فلوير (Flaubert) وموبسان (Maupassant) وغونكور (Goncourt) ودوديه (Daudet) بأخذ نماذجهم من العالم الذي يحيط بهم من خلال تجاربهم الشخصية مع الاحتفاظ بابتكارهم. ويمتد هذا النفوذ بعيداً ويغزو العالم الثقافي وقد خصص م.أ.ر كورتنيوس (M.E.R. Curtius) فصلاً كاملاً من كتابه «بلزك» لبيان هذا.

ولا يسمح لنا بتجاهل رائد التبحر في بلزك الفيكونت سبوليرش دولوفونجول (Spoellerch de Lovenjoul) الذي جمع بحماس ما يمكن تسميته بوثائق ومحفوظات بلزك ، هذه الثروة من المستندات التي وهبها إلى معهد فرنسا (Institut de France) . ويعتبر مؤلفه تاريخ مؤلفات بلزك (Histoire des œuvres de Balzac) مجموعة من المعلومات التي يستحيل على أي معجب ببلزك أو مؤرخ أدبي الاستغناء عنها.

لقد وجد بلزك في الولايات المتحدة معجبين كثر تعلقوا بوسائله التقنية وقدموا دراسات قيمة أدت إلى معرفة أفضل بفن ذي مصادر غير منتظرة .

وإذا أردنا تقديم دراسة شاملة فعلينا ألا نترك جانباً تأثير بلزك على الأفكار السياسية والاجتماعية في بداية القرن العشرين . لقد اعتبره پول بورجيه (Paul Bourget) استمراراً لبونالد (Bonald) .

وجوزيف دو ميتر (Joseph de Maistre) فيما عرف بعض الكتبة
الاشتراكيين من مؤلفاته عوامل تجديد وتقدم اجتماعي .

ألا يدل هذا التلاقي في الأفكار المتناقضة ان الملهاة الانسانية
هي أولاً عالم صغير ينقل بعظمته وتنوعه صورة الانسانية الحقيقية
والنابضة بالحياة ؟ لذا يخلب لب كل قرائه بهذا الفن القريب من
السحر فيؤخذون ليس فقط بالكاتب الذي يحول الى قصائد، البؤس
والفرح - بؤسنا وفرحنا نحن - بل بالانسان ويكون له مشاعر الصداقة
والاعتراف بالجميل رغم أخطائه .